# الصراع بين قوى الاصلاح والسلطان عبد الحميد الثاني
# في رواية " الموت في الطائف:Taif'te ölüm " للأديب حفظي طوبوز
## دراسة تحليلية نقدية

إعداد

**الدكتور/ ناصر عبد الرحيم حسين محمد**

**أستاذ الأدب التركي المساعد**

**كلية الآداب – جامعة حلوان**

مقدمة

أدى تدهور حال الدولة العثمانية وفقدان هيبتها وبعض أراضيها إلى البحث عن حلول لهذا الوضع المتأزم رغبة فى العودة إلى عصور الرقي والهيبة. وانشغل بهذا الأمر كل من السلطة الحاكمة المتمثلة فى السلطان ورجال الدولة، وأيضًا المثقفون. لكن جميع المحاولات لم تمنع الدولة وتوقفها من حالة الانهيار التي تتسارع وتيرتها يومًا بعد يوم. وقد تناول الكاتب "حفظى طوبوز"[1] انشغال مثقفي الدولة باعمال الاصلاح التى تهدف إلى عودة الدولة إلى سابق عهدها من قوة وهيبة. لكن هؤلاء المثقفون، الباحثون عن اصلاح الوضع،

---

([1]) _ ولد حفظي طوبوز عام ١٣٤٢ه/ ١٩٢٣م في مدينة اسطنبول. أنهى تعليمه الثانوي بمدرسة غلطه سراي عام١٣٦١ه/ ١٩٤٢م، وتخرج من كلية الحقوق جامعة اسطنبول. وفي الفترة بين ١٣٦٧ه – ١٣٧٨ه/ ١٩٤٧م – ١٩٥٨م عمل في جريدة المساء كمراسل ثم رئيسًا للمراسلين، ومديرًا للتحرير، ومديرًا للاذاعة العامة. وشغل منصب رئيس نقابة الصحفيين باسطنبول. حصل على درجة الماجستير في تخصص الصحافة والقانون الدولي من جامعة سطرسبورج فيما بين أعوام ١٣٧٧ه – ١٣٧٩ه/ ١٩٥٧م – ١٩٥٩م، وحصل أيضًا على درجة الدكتوراة في الصحافة من كلية الحقوق جامعة سطرسبورج عام ١٣٨٠ه/ ١٩٦٠م.

- Hıfzı Topuz,Taif'te ölüm,9.Basım,Remzi Kitabevi,İstanbul 1999, kapak sayfası.

- عمل خبير تدريب في الصحافة وتطوير وسائل الإعلام في المركز العام باليونسكو في باريس( ١٣٧٩ه – ١٤٠٤ه/ ١٩٥٩م – ١٩٨٣م)، ونظم حلقات علمية في تدريس الصحافة، في الدول الإفريقية والهند والفلبين.

s= 262345/ hifzi Topuz/ yazar/https:www.dr.com. tr-

- بدأ حفظي طوبوز مهنة الصحافة عام ١٣٦٧ه/ ١٩٤٧م في جريدة المساء. أخذ مكانه بين مؤسسي نقابة الصحفيين باسطنبول. درس الإعلام الدولي والإعلام السياسي في جامعة غلطة سراي، وجامعة الأناضول، وجامعة اسطنبول.

hifzi- topuz/yazar/https:www.remzi.com.tr-

- صدر لحفظي طوبوز عشرون كتابًا في موضوعات مختلفة. ومن أعماله: تاريخ الصحافة التركية، ثلاثة أيام من تشمليجه، بالتأكيد سيحل الصباح، سنوات الثورة، ميالة، السنوات الدامية لشانلي، غازي وفكريه، عبد المجيد، رصاصة للحرية، الذكريات المضحكة...

s=262345/hifzi- topuz/yazar/https:www.idefix.com-

- نال حفظي طوبوز العديد من الجوائز منها:
- جائزة حرية الصحافة لجمعية الصحفيين الأتراك( ٢٠٠٣م).
- جائزة الدكتوراة الفخرية جامعة عثمان غازي( ٢٠٠٥م).
- الجائزة الشرفية لخدمة الثقافة جامعة الشرق الأوسط للتكنولوجيا ( ٢٠١٤م).
- جائزة أصدقاء أفريقيا جامعة ايدين( ٢٠١٦م).

- Hıfzı Topuz, gazi ve fikriye, Remzi kitabevi, 27.Basım, İstanbul 2019, kapak sayfası.

يواجهون صعوبات جمة من قبل السلطة الحاكمة تفضي بحبس البعض ونفي البعض الآخر واختلفت الرؤى الاصلاحية بين المثقفين والسلطان عبدالحميد الثاني( ١٢٩٣هـ – ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦م – ١٩٠٩م) ورجال الدولة، ففي الوقت الذى يؤمن فيه السلطان بضرورة الاصلاح وفقًا لثقافة وهوية وحاجات المجتمع العثماني، أى أخذ ما هو نافع ومفيد فقط ، نجد أن جماعات الاصلاح تؤمن بالتغيير الجزري لكل شئ فى المجتمع من نظام حكم وقوانين وتشريعات وفقًا للنمط الأوروبي دون مراعاة أى خصوصية للمجتمع التركي العثماني.

وتناول الكاتب "حفظى طوبوز" هذا الصراع فى روايته "الموت فى الطائف: Taif'te ölüm". وعلى رأس هؤلاء الاصلاحين "مدحت باشا"[٢] وهو المقصود بعنوان الرواية حيث حاول – وفقًا لرأي الكاتب – السلطان عبد الحميد الثاني التخلص منه وقتله بعدة تدابير بسبب الخلاف بين مدحت باشا ورفاقه مع السلطان والصدر الاعظم المترتب على مساعيهم الإصلاحية التى لم ترق للسلطة الحاكمة.

والكاتب "حفظي طوبوز" تناول هذا الصراع فى هذا العمل الأدبي فى نمط الرواية البيبليوغرافية أو رواية ترجمة الحال التي تركز على أشخاص بعينهم لتتناول مسيرتهم النضالية. ووظف حفظي طوبوز قلمه فى هذا النوع من الروايات، فجاءت معظم رواياته فيما

(٢)_ هو صدر أعظم عثماني. وهو ابن حافظ محمد اشرف افندي.عمل في قلم الديوان الهمايوني بواسطة رئيس الكتاب عاكف باشا. وفي هذا المكان حصل على مخلص مدحت. وفي عام ١٢٥٦ه/١٨٤٠م نُقل إلى قلم مراسلات الصدارة العظمى. وفي عام ١٢٥٨ه/ ١٨٤٢م ذهب إلى سوريا بوظيفة كاتب محررات الشام. وفي عام ١٢٦٢ه/ ١٨٤٦م تواجد في قونية ككاتب ديوان والي قونيه سامي بكير باشا، ثم بعد ذلك تواجد في قسطموني. وفي عام ١٢٦٤ه/ ١٨٤٨م عاد إلى اسطنبول. ونال ثقة الصدر الأعظم رشيد باشا. ولما انفصلت أمور كتابة مجلس ولاة أحكام عدلية إلى شقين، الأناضول والروم ايلي، عُين مدحت باشا كاتب ثاني للأناضول.

وفي عام ١٢٧٥ه/ ١٨٥٨م حصل مدحت باشا على إذن بستة أشهر للتوجه إلى أوروبا؛ وزار فيها لندن وباريس وفيينا وبركسل. وفي عام ١٢٨٥ه/ ١٨٦٨م عُين مدحت باشا رئيسًا لشورى الدولة. وبسبب الخلافات التي نشبت بينه وبين الصدر الأعظم عالي باشا، عُين واليًا على بغداد عام ١٢٨٦ه/ ١٨٦٩م وأُبعد عن اسطنبول. وفي عام ١٢٨٩ه/١٨٧٢م عينه السلطان عبد العزيز صدرًا أعظمًا بعد عزل الصدر الأعظم محمود نديم باشا من منصب الصدارة العظمى. وعُزل بعد شهرين ونصف من وظيفته، وبدأ يسعى لتأسيس إدارة برلمانية( مشروطية). وعُين مدحت باشا وزيرًا للعدلية على إثر مظاهرة طلاب المدارس في اسطنبول.

وبعدما صار السلطان عبد الحميد الثاني سلطانًا عين مدحت باشا في منصب الصدارة. وعُزل بعد ذلك من الصدارة ونُفي إلى أوروبا عام ١٢٩٤ه/ ١٨٧٧م. وبناءً على طلب العفو من السراي، سمح له بالإقامة في جزيرة كريت عام ١٢٩٥ه/ ١٨٧٨م. وبعد فترة عُين على ولاية سوريا بتوصية من صفت باشا. وفي عام ١٢٩٧ه/ ١٨٨٠م عُين على ولاية آيدين. وحُكم في محكمة ييلديز كمتهم في قتل السلطان عبد العزيز، وحكم عليه بالإعدام. واستبدل السلطان حكم الإعدام بالمؤبد، ونفي إلى مدينة الطائف في ١٣٠٨ه/ ٢٨ يوليو ١٨٩١م. وقُتل في الطائف.

_ Tercüman gazetesi, Osmanlı Tarihi Ansiklopedisi, İstanbul 1985, s. 286.

يعرف بالرواية التاريخية سواء هذه الرواية موضوع الدراسة أو رواية "مياله" المهتمة بالقصر العثمانى او رواية "غازي وفكرية" التى تتناول حياة مصطفى كامل اتاتورك أو "ثلاثة أيام من تشمليجه" وهى الرواية السادسة لحفظي طوبوز التي يتعرض فيها للصراع القومي أثناء حرب الاستقلال. وهكذا، فإن حفظي طوبوز جعل كل رواياته فى هذا النمط. وجاء أسلوبه السردى يناسب تمامًا موضوعات رواياته، فهو بحق أديب من الطراز الاول فى هذا النمط.

وسوف تركز الدراسة فى هذه الرواية "الموت فى الطائف" على الصراع بين حركة الإصلاح التى يقودها المثقفون الاتراك الذين ارسلوا إلى أوروبا فى شكل بعثات ثم عادوا إلى بلادهم وعلى رأسهم "مدحت باشا" وبين السلطة الحاكمة المتمثلة فى السلطان عبد الحميد الثاني. وبدأ المثقفون الذين ارسلوا إلى اوروبا للدراسة منذ عهد محمود الثاني فى العودة إلى الأوطان ملمين بأفكار الحداثة هناك، كما بدأوا فى نشر أفكارهم بوسائل مختلفة وشرعوا فى الانشطة الفكرية والفنية والثقافية بمقصد إنقاذ الدولة العثمانية والوصول بالمجتمع إلى نظام جديد.

**وسوف تشتمل الدراسة على الموضوعات التالية:**

* تشكُّل قوى الإصلاح ورؤيتها الإصلاحية.
* السلطان عبدالحميد ورؤيته الإصلاحية.
* الصراع بين قوى الإصلاح والسلطان عبدالحميد بسبب الإصلاحات من خلال رواية الموت في الطائف: Taif'te ölüm.
* مدحت باشا وموقفه من الإصلاحات من خلال الرواية.
* الخلاف بين مدحت باشا والسلطان عبدالحميد بسبب الإصلاحات من خلال الرواية.

وعند كتابة أي بحث علمي لا بد من اتباع منهج علمي يتفق وبناء الدراسة. ونظرًا لأن هذه الدراسة تلامس أحيانًا الوقائع التاريخية، وتارة أخرى تُترجم بعض النصوص من الرواية وبيان ما بها من جماليات اللغة، وعرض للسيرة الذاتية للأديب، فإن البحث سوف يعتمد "المنهج التكاملي" الذي يمكنه أن يغطي كل هذه النقاط البحثية.

*** تشكُّل قوى الاصلاح ومسيرتها الإصلاحية :**

يُلاحظ مسعى التغيير الذى يطلق عليه بشكل عام "تجديد" فى المجتماعات التى انتهت فيها مرحلة الإزدهار. كما أن رغبة الوصول تارة أخرى لعوامل الرقي والإزدهار هو أمر طبيعي لكل دولة سقطت فى اضطرابات وقلاقل. وعلى هذا، اضطرت الدولة العثمانية – التى عاشت أزهى أيامها فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى ونالت مكانة مميزة بين دول العالم – أن تعيش مغامرة التجديد بهدف منع التدهور الذى أصاب بنية الدولة. وأدى استمرار الإنهيار والسقوط رغم التدابير المتخذة إلى نمو الشعور بالخوف من التقسيم والوقوع فى حالة مزرية عند عموم المثقفين وعلى رأسهم رجال الدولة. وبسبب هذا الخوف والقلق فإنه يلاحظ أن المثقفين الذين بدأوا فى البحث عن خلاص يقترحون علاجات كثيرة. ولكن هذه التدابير التى تم اقتراحها لم تناقش بالقدر الكافي ولم توضع حيز التنفيذ لأسباب منها عدم الإتفاق فكريًا بين رجال الدولة والمثقفين حول التدابير المتخذة.[٣]

وكان المثقفون العارفون لهذه الحقيقة عن قرب قد شرعوا فى الانشطة الفكرية والفنية والثقافية بمقصد انقاذ الدولة العثمانية والوصول بالمجتمع إلى نظام جديد. وكان الأشخاص العاملون فى وظائف الدولة المختلفة فى المقدمة من هذه الفعاليات. ولعبت أفكارهم التى طرحوها عبر المقالات والرسائل المختلفة دورًا لا يستهان به فى إرساء الدعائم الفكرية لفترة التنظيمات. كما أن بعض رجال الدولة الذين ذهبوا إلى أوروبا بوظائف رسمية عادوا بانطباعات ثرية؛ ونقلوا لمسئولي الدولة وللشعب ما شاهدوه فى البلاد الأوروبية. وكان من بين هؤلاء "مصطفى سامى افندى" باش كاتب السفارة فى باريس حيث دون رسالته تحت اسم "رسالة أوروبا" ونشرها فى تقويم الوقائع ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م.[٤]

يجب أن يُنظر لعهد السلطان سليم الثالث (١٢٠٤هـ – ١٢٢٢هـ/١٧٨٩م – ١٨٠٧م ) كفترة مهمة فى تاريخ تحديث الدولة العثمانية من زاوية تشكيل المقدمات الأول لحركة التنظيمات... وكان لفتح السفارات الدائمة فى عهد سليم الثالث فى المدن الأوربية المهمة أثرًا فاعلًا فى دخول المؤثرات الغربية إلى الإمبراطورية، وفى تشكيل هوية المثقف الجديد.

(3) _ Saadettin Yıldız, Tanzimat Dönemi Edebiyatı, Günce yayıncılığı, Eskişehir, 2003, s.7.
(4) _ Saadettin Yıldız, Tanzimat Dönemi Edebiyatı, s. 12.

وكان السفراء العثمانيون الأول الذين ارسلوا إلى الحواضر الأوروبية المهمة مثل لندن، فيينا، برلين، وباريس ساسة ذوى تعليم تقليدى ولايعرفون اللغات الأوروبية... ويبدو من الرسائل التى ارسلها السفراء الأول أنهم لم يتمكنوا من فهم أوروبا جيدًا ، ولم يتأثروا كثيرًا بالتطورات التكنولوجية والسياسية الموجوده هناك. ولكن ذهب سويًا مع هؤلاء السفراء الكتاب الاتراك الشبان ليتعلموا اللغات الاوربية ولا سيما اللغة الفرنسية. ومع مرور الوقت عاد هؤلاء الكتاب إلى الدولة العثمانية وشغلوا الوظائف المهمة. وعلى هذا، فإن الزيادة التدريجية لأعداد من رأوا أوروبا وتعلموا اللغات الأوروبية وتأثروا بالفكر الثوري الغربى مهد الأرض لحركة التنظيمات.(٥)

وعمل السلطان محمود الثانى(١٢٢٣هـ – ١٢٥٥هـ / ١٨٠٨م – ١٨٣٩م) على استمرار فكرة فتح السفارات فى البلدان الأوروبية التى بدأها سليم الثالث. وعهد بأمور الترجمة إلى من هم مسلمين عن طريق "غرفة الترجمة" التي أمر بإنشائها. واستولى البيروقراطيون العثمانيون الذين نشأوا فى غرفة الترجمة وعملوا سفراء فى أوروبا على إدارة الدولة فى الفترة التالية ولا سيما سياسة تركيا الخارجية. وكان رجال الدولة الثلاثة الكبار لفترة التنظيمات "مصطفى رشيد باشا"(١٢١٥هـ – ١٢٧٥هـ/ ١٨٠٠م – ١٨٥٨م )، وعالى باشا ( ١٢٣١هـ – ١٢٨٨هـ/ ١٨١٥م – ١٨٧١م)، وفؤاد باشا( ١٢٣١هـ – ١٢٨٦هـ/ ١٨١٥م – ١٨٦٩م ) حيث ذهب مصطفى رشيد باشا إلى باريس عام ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م وبعد ذالك الى لندن، وذهب عالى باشا إلى فيينا عام ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م، وفؤاد باشا إلى لندن عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م، وأيضًا كان صادق رفعت باشا من السمات المهمة للعصر وزيرًا مفوضًا فى فيينا عام ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م٠ وكان قد خدم" محمد شكيب" فى فيينا عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م، وإبراهيم صاريم باشا فى لندن عام ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م. وبسبب أن أولاد هؤلاء الدبلوماسيين الأول اغتنموا فرصة وجودهم فى أوروبا وتعلموا هناك فإنهم شغلوا فى الفترة

(5) _ Mehmet Beşirli, Osmanlı' da modernleşme ve Aydınlar, 1789 _ 1908, Dini araştırmalar, C.2 Eylül _ Aralık 1999, s. 132 _ 133.

التالية المواقع المهمة فى مراحل الدولة، ولا سيما أحمد وفيق باشا[٦] الذى ذهب إلى باريس مع والده عام ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م.[٧]

وكان رشيد باشا، وزير عبدالمجيد، يتمتع بنفوذ الحاكم الحقيقي للبلاد. وبدافع اعتناقه للماسونية، كان شديد الإعجاب بكل ما هو غربي، ولهذا فإنه لم يدخر وسعًا في إعداد الجيل التالي من الوزراء ورجال الدولة، وأن يفسح لهم مجال السلطة والنفوذ.[٨]

وكان رشيد باشا مؤثرًا في إدارة الدولة وعلى رأسها وزارة الخارجية...أما في فترة التنظيمات فقد لمع نجم "عالي باشا" و"فؤاد باشا". واستمرت الإصلاحات العثمانية بعد عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م تحت ريادتهما. وكان الإصلاحيون الجدد منفتحين على الإصلاحات الغربية بفضل معرفتهم للغات الأجنبية.[٩]

كان إخفاق إصلاحات التنظيمات في الدولة العثمانية قد خلق أولى إشارات تشكل معارضة جديدة في الدولة العثمانية ... وفي الخطوة الجديدة صارت الجماعات المثقفة التي تأثرت بالفكر الغربي ترفع رأسها في وجه البيروقراطية الحاكمة. وكان الراغبون في التطورات

---

(٦) _ ولد في اسطنبول. وهو كاتب مشهور من كتاب أدب التنظيمات. هو حفيد "يحيى ناجي" مترجم الديوان، وابن روح الدين من موظفي الخارجية. بعدما أنهى تعليمه الإبتدائي في المهندسخانة، ذهب عام (١٢٥٠ه/ ١٨٣٤م) برفقة والده الذي كان مترجمًا لـ"رشيد باشا" أثناء عمله كسفير للدولة العثمانية في باريس. ودرس لمدة ثلاث سنوات في مدرسة "سانت لويس" الثانوية في باريس. ولما عاد إلى اسطنبول عُين عام ١٢٥٣ه/ ١٨٣٧م في حجرة الترجمة. وبعد ذلك ترقى في الوظائف الداخلية والخارجية، حيث عُين عام ١٢٦٨ه/ ١٨٥١م سفير في طهران، ثم سفير في باريس عام ١٢٧٧ه/ ١٨٦٠م، وأصبح وزيرًا للأوقاف فيما بين ١٢٨٩ه – ١٢٩٥ه/ ١٨٧٢م – ١٨٧٨م، وعُين رئيس لمجلس المبعوثان الذي فُتح لأول مرة عام ١٢٩٤ه/ ١٨٧٧م، وصار واليًا على مدينة بورصة عام ١٢٩٦ه/ ١٨٧٩م، كما أنه عُين صدرًا أعظمًا مرتين( ١٢٩٥ه – ١٢٩٩ه/ ١٨٧٨م – ١٨٨٢م). وفي النهاية انزوى إلى قصره في "روم ايلي حصار" واقفًا نفسه على العلم والأدب لمدة تسع سنوات حتى وافته المنية. وإضافة إلى أن أحمد وفيق باشا رجل دولة مثقف فإنه أبرز شخصيته الرئيسية في مجال الأدب. وكان يعرف اللغة العربية والفارسية والفرنسية والإيطالية. وبالإضافة إلى هذا، كان يقرأ ويكتب بالألمانية والإنجليزية والروسية واليونانية القديمة. وأكبر خدمة قدمها أحمد وفيق باشا لتركيا كانت في مجال المسرح حيث عمل على تطور الأدب المسرحي والحياة المسرحية. وهو لم يرق له تقليد أوروبا وكان يريد عودة الأتراك إلى هويتهم، كما كان يُعلي من الأعمال الفنية التركية ويقول إنه متمسك بالتقاليد الوطنية من ملبسه حتى احتياجات المنزل. ومن أعماله: شجرة الترك( ترجمة لأثر أبو الغازي بهادر خان إلى اللغة التركية العثمانية عام١٢٨١ه/ ١٨٦٤م)، فذلكه تواريخ آل عثمان( تاريخ عثماني، ١٢٨٦ه/ ١٨٦٩م)، لهجه عثماني( ١٢٨٧ه/ ١٨٧٠م):

_ Seyit Kemal KaraAli Oğlu, edebiyatımızda şair ve yazarlar, 9.basım, İnkılap kitabevi, İstanbul 1986, s. 22 – 23.

(٧) _ Mehmet Beşirli, Osmanlı' da modernleşme ve Aydınlar, 1789 _ 1908, s. 143 _ 144.

(٨) _ موفق بني المرجه، صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية، مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر، الكويت، مايو ١٩٨٤م، ص ٥٣.

(٩) _ Mehmet Beşirli, A.G.E, s. 145 _ 146.

والتغيير في الفكر والنظام الإداري للدولة الحديثة بعد ذلك ليس من الذين أتوا من ميدان السياسة أو من البيروقراطية الحاكمة (الكادر الإداري للدولة) بل كانوا من الأشخاص المنفتحين على الفكر التنويري وهم الكتاب ورجال الفكر. وعلي هذا فإن مسعى التجديد لن يكون نابعًا من بعض البيروقراطيين ورجال الدولة بل سيكون بمسعى المفكرين الذين برزوا على الساحة حديثًا. ومن بين هؤلاء "إبراهيم شناسي"(١٢٤٢هـ – ١٢٨٨هـ/ ١٨٢٦م _ ١٨٧١م)، وضيا باشا(١٢٤١هـ – ١٢٩٨هـ/ ١٨٢٥م _١٨٨٠م)، ونامق باشا(١٢٥٦هـ – ١٣٠٦هـ/ ١٨٤٠م – ١٨٨٨م) الذين تأثروا بالفكر الأوروبي والتطورات الحديثة. وهم من الشخصيات التي تركت بصمتها في عصرهم.(١٠)

وقد أثرت "إصلاحات التنظيمات" بشكل كبير على الحياة الاجتماعية والثقافية علاوة على التغير والتطور السياسي والإداري والعسكري، وهزت الكيانات المجتمعية العثمانية من الأساس حتى وإن كان ذلك بشكل ضئيل، وهيأت الأرضية لمولد النخب الجديدة مثل مصطفى رشيد باشا (١٢١٥هـ – ١٢٧٥هـ/ ١٨٠٠م – ١٨٥٨م) المعروف بتعليمه وثقافته الغربية. فإن النجاحات أو الإخفاقات التي صاحبت التنظيمات صارت سببًا لمولد المفكرين والمثقفين المعارضين الذين اتخذوا الأدب والصحافة مصدرًا لهم في المجتمع العثماني.(١١)

ونتيجة لهذا ظهرت جماعة العثمانيين الجدد، وكان المقصد الأصلي لهذه الجماعة هو تغيير نظام الحكم. ولذا فإنهم بعد فترة وجيزة من ظهورهم طلبوا إعلان المشروطية. لكن الأمر المؤكد هو استفادة الحركة من بعض الشخصيات السياسية.(١٢)

والأفراد المؤسسون لهذه الجماعة هم نامق كمال، نورى بك، آية الله بك، رشاد بك، رفيق بك وآقاه أفندي. ومنذ تأسيس الجمعية وهم يعقدون اجتماعاتهم سرية... ويطلبون الدعم من بعض الرجال المحيطين بالسلطان عبد العزيز. لكن الصدر الأعظم "عالي باشا" يحيط علمًا بهذا الأمر، ويفشل مسعاهم هذا.(١٣)

(10) _ Mehmet Beşirli, A.G.E, s. 148 _ 149.
(11) _ Mehmet Beşirli, A.G.E, s. 135.
(12) _ Prof.Dr. Ahmet Hamdi Tanpınar, 19 uncu Asır Türk Edebiyatı Tarihi, 9.baskı, İstanbul 2001, s.222 _ 223.
(13) _ Saadettin Yıldız, Tanzimat Dönemi Edebiyatı, s.16.

وبينما كانت الأجواء داخل الدولة لا تريح أعضاء جمعية العثمانيين الجدد كان هناك مناخ أفضل مُعد للأشخاص الذين يرغبون في عودة العزة والاعتبار التي فقدتها الدولة. وكان مصطفى فاضل باشا الأمير المصري لا يكف يده عن إسطنبول، وكان يريد أن يجمع حوله المثقفين المعارضين الذين يمكن أن يكون لهم تأثير في الصراع السياسي الذي سيدبره. ولهذا قام بدعوة نامق كمال وابو الضيا باشا كأصحاب أقلام مشهورين بفكرهم التنويري. وبناءً على هذه الدعوة يذهب إلى باريس كل من: نامق كمال، وضيا باشا، ومحمد بك، ورشاد بك، ونورى بك و آقاه افندى وعلى سعاوى.(١٤)

كان أعضاء جمعية العثمانيين الجديد يعتبرون "مدحت باشا" رائدًا وقائدًا لفكرهم. وكان مدحت باشا معجبًا بانجلترا وبنظامها الديموقراطي. وكان يتصور أن الدولة العثمانية يمكنها تفادي كل نقص ألم بها إذا طبقت النظام الإنجليزي. وكانت إنجلترا تؤيد مدحت باشا وتناصره، لذلك كان يرى أن تقليص نفوذ السلطان العثماني، وسلطة الأسرة العثمانية، لا يتم إلا بإعلان القانون الأساسي.(١٥)

وعلى هذا أعلنت المشروطية الأولى في الدولة العثمانية في ١٢٩٤هـ/ ٢٣ديسمبر ١٨٧٧م نتيجة مسعى جماعة العثمانيين الجدد التي ظهرت خلال فترة التنظيمات. ثم ألغى السلطان عبد الحميد الثاني في ١٢٩٦هـ/ ١٣فبراير ١٨٧٨م مجلس المبعوثان لأسباب منها: هزيمة الدولة العثمانية في حربها مع روسيا التي اندلعت في ١٢٩٥هـ/ ٢٠مارس ١٨٧٧، ووصول الروس حتى "يشيل كوى" واتهامات السلطان عبد الحميد الثاني والعسكر في المجلس. وبهذا انتهت فترة المشروطية الأولى. واستمر حكم السلطان عبد الحميد الثاني حتى ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.(١٦)

وتلقى العثمانيون الجدد – الذين تشكلوا إثر إخفاقات التنظيمات – ضربة كبيرة بإلغاء الدستور. وقد اعترضت هذه الحركة الفكرية _ التي أرادت تحديث النظام الإداري للدولة

(14) _ Saadettin Yıldız, Tanzimat Dönemi Edebiyatı, s. 17 _ 18.

(١٥)_ موفق بني المرجه، مرجع سابق، ص ٥٥ _ ٥٦.

(16) _ Prof.Dr. İsmail Çetişli ve diğerleri, II.Meşrutiyet Dönemi Türk Edebiyatı, Ak çağ yayınları,I.baskı, Ankara 2007, s.15 _ 16.

وتنظيمه من جديد وفقًا للنماذج الغربية _ على طبيعة التنظيمات والإدارة المركزية للدولة، فقد رأى العثمانيون الجدد أن أتباع التنظيمات أزالوا المؤسسات القديمة دون أن يقيموا مكانها تحديثاتهم، كما رأى هؤلاء بأن حل كل هذه السلبيات يكون في تشكيل حكومة برلمانية. وقد تحقق لهم ذلك، ولكن قبل مرور عامين ألغى هذا الدستور وهرب معظمهم إلى خارج الدولة.(١٧)

**_ رؤية السلطان عبد الحميد الثاني الإصلاحية:**

من الثابت أنه من غير الممكن تغيير كل شيء بالكامل في أي مجتمع، وإقامة حياة اجتماعية أخرى بكامل مقاوماتها مكانها. كما أنه لا يمكن أن يظل أي مجتمع قط على حاله في ظل وجود التدخلات الخارجية المستمرة لسنوات في حياته التقليدية. إلا أن الأمر الهام أثناء التغيير هو ألا تذوب هويته وأن يحافظ على ذاته.(١٨)

والحق فإن الدولة العثمانية بداية من القرن الـ ١٣هـ/١٩م لم تساير النظام السياسي والاقتصادي العالمي. ومنذ هذه الفترة بدأت الإصلاحات المقتبسة من أوروبا لسد هذا العجز. ولكن في بداية الأمر كانت جل الإصلاحات بهدف منع الضغوطات الخارجية، وتقوية الإدارة تجاه الاضطرابات أو الفوضى التي بدأت تظهر في الداخل؛ ولذلك فإن بعض الإصلاحات السياسية والعسكرية والاقتصادية المقتبسة من الغرب وطبقت في الدولة تم نقلها حرفيًا من أوروبا وعمل على تكييفها وموائمتها مع الواقع الاجتماعي. ولم تناقش مشروعات الإصلاح هذه على المستوى الشعبي أو من طرف المثقفين، وبيان ما إذا كانت ستناسب أو لن تناسب البناء المجتمعي والثقافي العثماني، والهوية التركية الإسلامية؛ لأنه لم تكن ظروف النقاش متاحة.(١٩)

وانتُقدت الإصلاحات التي طبقت في عصر السلطان محمود الثاني بسبب اهتمامها الزائد بالمسائل السطحية كالتشبه بأوروبا في الملبس ونظام الحياة اليومي والتشريفات. وما تم من إصلاحات في هذه الفترة مع أنه أحدث بعض التغييرات ولاسيما في الجانب العسكري إلا

(17) _ Mehmet Beşirli, A.G.E, s. 151 _ 152.
18) _ Saadettin Yıldız, A.G.E, s. 15.(
(19) _ Mehmet Beşirli, A.G.E, s. 132 _ 133.

أنها لم توقف حالة التردي والتقهقر الذي أصاب الدولة؛ علاوة على أنها فتحت الجراح في البنية المجتمعية. ولهذا شرعت الدولة في البحث عن تدابير أكثر نظامًا ومنهجية.[٢٠]

وبدأ مع السلطان عبد الحميد الثاني ( ١٢٩٣هـ – ١٣٢٧هـ/١٨٧٦م – ١٩٠٩م) برنامج تحديثي أكثر فاعلية حتى العهود المبكرة من العصر الحديث. وكانت إصلاحات التنظيمات تتضمن سلسلة حركات الإصلاح التي بدأت في التشكل اعتبارًا من سليم الثالث ووجدت حيز التنفيذ في حكم السلطان محمود الثاني وطبقت بدرجة كبيرة في عهد عبد المجيد الأول( ١٢٥٥هـ – ١٢٧٨هـ / ١٨٣٩م – ١٨٦١م ) وعبد العزيز (١٢٧٨هـ – ١٢٩٣هـ / ١٨٦١م – ١٨٧٦م ). ورغم تعرض هذه الإصلاحات للتوقف أحيانًا حسب ظروف الوقت، فإنه عند بلوغ الربع الثاني للقرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي صارت هذه الإصلاحات تطورًا حتميًا لا رجعة عنه. ففي القرن الـ ١٣هـ/١٩م كان لا يوجد حل في تركيا سوى الإصلاح للمؤسسات التي فسدت. وكان أنصار التنظيمات قد وضعوا الأسس اللازمة للتحديث الذي سيُجرى فيما بعد رغم كل إخفاقاتهم... ولكن رغم كل هذه الإخفاقات كان من غير الممكن التراجع عن الإصلاحات التي وجدت طريقها.[٢١]

وحينما توفي السلطان عبد المجيد خلفه السلطان عبد العزيز الذي تابع نهجه في مسيرة التغريب تحت شعار الإصلاح والتحديث، لكنه رغم ذلك لم ينج من مؤامرات رجال القصر، ومعظمهم من جماعة العثمانيين الجدد التي بدأت في التشكل منذ عام١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م، فتم عزله وتدبير مقتله، ليتولى الخلافة السلطان مراد الخامس، شقيق عبد الحميد الثاني... ولكن السلطان مراد مكث في الحكم ٩٣ يومًا فقط، لم يخرج فيها للشعب يومًا، وظهرت عليه علائم الجنون، مما اضطر جماعة العثمانيين الجدد، المهيمنين على الحكم، إلى تولية أخيه عبد الحميد الثاني، حيث تمت بيعته بالخلافة يوم ٣١ أغسطس ١٨٧٦م / ١٢٩٣هـ وكان في الرابعة والثلاثين من العمر.[٢٢]

---

(20) _ Saadettin Yıldız, A.G.E, s. 7.

(21) _ Mehmet Beşirli, A.G.E, s. 147 _ 148.

(٢٢)_ موفق بني المرجه، مرجع سابق، ص ٥٥.

ومع أن السلطان عبد الحميد لم يفسح المجال للإصلاحات السياسية إلا أنه شرع في إصلاحات مقتبسة من أوروبا عاجلة ومدبرة في كل مؤسسات الدولة. وقرر السلطان _ مع الضغوط الداخلية والخارجية _ الاختيار والتطبيق بعقلانية للإصلاحات التي يفكر فيها الحراك الداخلي ولا تخالف الشريعة الإسلامية والأعراف التركية الراسخة. وقد أوضح السلطان في مذكراته سياسته الإصلاحية على هذا النحو:

لو تقبل بعض الإصلاحات عندنا فإنها يجب أن تطبق آخذة في الاعتبار الظروف الحقيقية للدولة؛ أي يجب أن يؤخذ في الاعتبار مستوى حضارة الشعب وليس مستوى فكر بعض الإداريين. كما يجب أن يوضع في الاعتبار طبقة العلماء الذين يقابلون كل شيء يأتي من أوروبا بالريبة. وعند تطبيق الإصلاحات فإني على قناعة بضرورة تحسس الأرض والتحرك ببطء قبل كل خطوة أخطوها. وسوف يكون بمقدور أجيالنا القادمة فقط رؤية حياة مدنية جديدة ستظهر وتتضح بأخذ أفضل جوانب الحضارة الأوروبية ومزجها بالثقافة الشرقية.(٢٣)

وهكذا في ضوء هذه الرؤى الإصلاحية طور السلطان عبد الحميد الثاني تجاربه الإصلاحية التي أخذها من التنظيمات وميوله التحديثية التي حقق بعضها من إصلاحات قضائية وشرعية وتعليمية، وصار له دور الريادة في تأسيس تركيا الحديثة. وأهم الإصلاحات التي قام بها هي إصلاحاته في مجال التعليم. لأنه وفقًا لرؤية السلطان أن الإصلاح في مجال التعليم شرط اساسي لكل التطورات الأخرى.(٢٤)

ويرى السلطان عبد الحميد الثاني أن التطور لا يكون تحت تأثيرات الخارج ونتيجة للضغوط سواء داخلية أو خارجية، بل لا بد وأن ينبع التطور من الذات وأن يكون طبيعيًا ومن تلقاء نفسه وأن يأخذ طريقه ومساره الطبيعي.(٢٥)

(23) _ Mehmet Beşirli, A.G.E, s. 152 _ 153.
(24) _ Mehmet Beşirli, A.G.E, s. 153.
(25)_ Mehmet Beşirli, A.G.E, s. 131.

*** الصراع بين قوى الإصلاح والسلطان عبد الحميد من خلال رواية " الموت في الطائف ".**

كان نظام حكم السلطان عبد الحميد ــ الذي لم يأذن بالفكر السياسي ــ السبب الرئيسي وراء تشكل المعارضة مع مرور الوقت. لكن التطور الغريب أن المعارضين للسلطان عبدالحميد كانوا من الأفراد الذين تربوا في المدارس التي فتحها السلطان. وشكل نخب الشباب جمعية الإتحاد والترقى عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م حيث انتشرت أفكار تللك الجمعية بين طلاب كل المدارس العليا وعلى رأسها طلاب العسكرية وطلاب الطب العسكرى. ورغم هروب الكثير من أفراد العثمانيين الجدد إلى خارج الوطن فإن هذه الحركة في الفترة التالية رسخت تدريجيًا حتى أحداث ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م ووصلوا السلطة بثورة غير متوقعة بدأها بعض الضباط.(٢٦)

وتعاون قائد العسكر "حسين عونى باشا"( ١٢٣٧هـ – ١٢٩٣هـ/١٨٢١م – ١٨٧٦م ) ومدحت باشا وأسقطا عبدالعزيز عن العرش. وبسبب أن مدحت باشا كسب ثقة الرأى العام عينه السلطان عبدالحميد الثانى صدرًا أعظمًا. لكن السلطان كان لايثق فيه بسبب اشتراكه فى خلع السلطان عبدالعزيز عن العرش. وقد أدت مساعي مدحت باشا إلى إعلان الدستور.(٢٧)

ويذكر "حفظى طوبوز" فى روايته "الموت فى الطائف" بداية تشكل جماعة العثمانيين الجدد والتعرف على بعضهم مثل مدحت باشا وابو الضيا توفيق(١٢٦٥هـ – ١٣٣٢هـ/١٨٤٩م – ١٩١٣م ) ونامق كمال(١٢٥٦هـ – ١٣٠٦هـ/١٨٤٠م – ١٨٨٨م ) وولى العهد الشهزاده "مراد بك" وذلك عقب عزل مدحت باشا من ولاية "بغداد" ومجيئه إلى اسطنبول حيث سرد ذلك الأمر على هذا النحو:

" لما عاد مدحت باشا إلى اسطنبول بدأ جميع اصدقائه فى التوافد على قصره كل يوم. وكان أبو الضيا توفيق الصحفى المشهور واحد من هؤلاء. ولم يكن قد التقى قط بمدحت باشا، ولكن كانا يعرفان بعضهما جيدًا. وقال مدحت باشا له " لقد قرأت فى الاسكندرون المقالات التى حررتها جريدة "عبرة" بخصوصي وتأثرت بها كثيرًا... كما أننى دائما أقرأ

(26) _ Mehmet Beşirli, A.G.E, s. 154.
(27) _ Prof.Dr. İsmail Çetişli ve diğerleri, II.Meşrutiyet Dönemi Türk Edebiyatı,s. 16.

مقالات كمال بك ومقالاتكم ومقالات رشاد ونورى وأعجب بها... أبلغ سلامي وحبي لكمال بك وقل له إننى أشاركه وجهات نظره ... وقام ابو الضيا على الفور بمقابلة نامق كمال في ذلك اليوم ونقل له كلام مدحت باشا".[٢٨]

وأرسل كمال بك مع ابو ضيا توفيق رسالة مختومة بختم ولى العهد مراد بك لطلب اللقاء بمدحت بك، ورحب مدحت باشا بذلك[٢٩]. وبهذا تشكلت النواة الأولى لجمعية العثمانيين الجدد التى تحمل لواء الإصلاح والتجديد والوقوف كمعارضة فى وجه السلطة بنشرياتها وجرائدها.

ويؤكد ما سبق ذكره على لسان "حفظى طوبوز" ما ذكره السلطان عبدالحميد فى مذكراته عن جمعية العثمانيين الجدد حيث قال: هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم اسم _تركيا الفتاة_ كانوا فى الأصل ثلاثة أشخاص أو خمسة وهؤلاء عملوا ضدى عدة سنوات فى أوروبا. تكلموا، خططوا وكتبوا كل ذلك قبل أن يفكروا أن العمل ضدى معناه أيضا: العمل ضد الوطن. كانت صحفهم التي يصدرونها تأتي خفية إلى البلاد عن طريق البريد الأجنبي وتوزع بواسطة الأجانب... مضت أعوام ولم تحدث آثار جديدة مهمة لهذا، لأنها لم تكن أعمالًا تنبع من أفكار جديدة مهمة.[٣٠]

وعلى هذا يُعد " أحمد مدحت " (١٨٤٤م _ ١٩١٢م) وأبو الضيا توفيق (١٨٤٩م _١٩١٣ م)، وتوفيق فكرت (١٨٦٧_ ١٩١٥م)، وميزانجى مراد بك (١٨٥٣م _١٩١٢م ) من الرموز الفكرية لهذا العصر والباحثة عن الإصلاح على النمط الأوروبى، وقد لعبوا دورًا محوريًا فى تطوير وتحديث عصرهم سواء عن طريق النشر أو المؤلفات الأدبية.[٣١]

(28) _ Mithat Paşa'nın İstanbul'a döndüğünü duyan bütün dostları her gün Paşa'nın konağına akın etmeye başladılar.Bunlardanbiri de ünlü gazeteci Ebuzziya Tevfik'ti. Hiç karşılaşmamışlardı, ama birbirlerini çok iyi tanıyorlardı. Paşa kendisine, '' İbret gazetesinin benim hakkım yazdığı yazıları İskenderun'da okudum, çok duygulandım,'' dedi.....Kemal Bey'in, sizin, Reşat ve Nuri Beylerin yazılarınızı her zaman beğenerek okudum.....Kemal Bey'e sevgi ve selamlarımı iletin ve görüşlerini paylaştığımı söyleyin.... Ebuzziya hemen o gün Namık Kemal'i bularak Paşa'nın sözlerini kendisine aktardı.
Hıfzı Topuz, Taif' te ölüm, 9.Basım,Remzi Kitabevi, İstanbul 1999, s. 48.

(29 ) _ Hıfzı Topuz, Taif' te ölüm, s. 49 _ 51.

(٣٠)_ موفق بني المرجه، مرجع سابق، ص ٦٤ _ ٦٥.

(31) _ Mehmet Beşirli, A.G.E, s. 153.

*** الإرهاصات الأولى للخلاف بين مدحت باشا وأنصاره مع عبدالحميد الثانى :**

مرت العلاقة بين مدحت باشا والسلطان عبد الحميد منذ البداية بشئ من الحذر. وكان كل منهما يخشى الآخر، فكان السلطان عبدالحميد الثانى يضمر فى نفسه مشاركة مدحت باشا فى مقتل عمه وسعيه لخلق نظام جديد فى الحكم خلاف المتوارث والمتعارف عليه. كما أن مدحت باشا كان يخشى من السلطان عبدالحميد منذ توليه العرش أن يتمكن من حكمه ثم ينقلب عليهم.

وقد تناول حفظى طوبوز فى روايته معارضة مدحت باشا وكثير من رفاقه المتمثلين فى العثمانين الجدد السلطان العثمانى بداية من عهد عبدالعزيز، ووصل الصراع والخلاف أوجه فى عهد السلطان عبدالحميد الثانى. واعتمد "مدحت باشا" فى معارضته على قوة شعبيته بين الناس عامة والطبقة المثقفة خاصة وقناعة المنتمين للعثمانيين الجدد بفكره حيث كانوا يجعلون منه زعيمًا لهم فى المطالبة بالحرية والحياة النيابية. واوضح "حفظى طوبوز" هذا الأمر فى الحوار الذى دار بين نامق كمال وابو الضيا توفيق حيث قال أبو الضيا توفيق: "صحيح ، صحيح عزيزى كمال، وأنا أيضا أقل لك هذا. انت لا تستطيع أن تظهر ليّ رجل دولة واحد تبنى حرية الصحافة مثل مدحت باشا. كأن هذا الرجل المبارك أتي إلى الدنيا للدفاع عن قضية الحرية". ويرد نامق كمال: "وأنا أيضًا أشاركك الرأى يا توفيق، ليس هناك من يفهم العثمانيين الجدد مثله"(٣٢)

ولعل هذه القناعة من نامق كمال وابو الضيا توفيق من مؤسسي جماعة العثمانيين الجدد، وبقية المثقفين بأن مدحت باشا هو رمزًا للحرية، وتشكل قاعدة عريضة مؤيدة لفكر مدحت باشا هى التي جعلته يرفع رأسه فى وجه السلطة ويسعى لتحقيق أهدافه. وخلال وتيرة هذا المسعى وقع كثير من الخلاف بينه وبين السلطان عبدالحميد الثاني. ومن الأحداث التى خلقت حالة من العداء والنفور بينهما هو حادثة الانقلاب على السلطان عبدالعزيز ثم قتله، وسرد الكاتب هذه الحادثة ومن قاموا بها على هذا النحو:

---

(32) _ Doğru, doğru, Kemal'ciğim, ben de sana şunu söyleyeyim. Bana Mithat Paşa kadar basın özgürlüğünü benimsemiş tek bir devlet adamı gösteremezsin. Bu mübarek adam sanki dünyaya hürriyet davasını savunmak için gelmiş.
Hıfzı Topuz, Taif'te ölüm, s.49.

اجتمع ذات مساء مدحت باشا ورشدى باشا وحسين عونى باشا وشيخ الإسلام خيرالله أفندى وقيصرلى أحمد باشا، وقيّموا الوضع واتفقوا على أن الحل الوحيد هو إسقاط عبدالعزيز عن العرش. وليس هناك حل أخر... ولكن كانوا سيولون من مكانه؟. كان مراد أفندى أكبر أبناء آل عثمان بعد عبدالعزيز. وكانت السلطنة من حقه. وكان يجب توليته العرش دون إنتهاك قط للقواعد المعمول بها.(٣٣)

وحرر شيخ الإسلام خيرالله أفندى فتوى بإنزال السلطان عن العرش... وبعد صدور الفتوى صار الأمر سهلًا للغاية. وفى الواقع كان خيرالله أفندى مع الانقلابين العسكريين. وكانت لا توجد قوة قط يمكنها إنقاذ "عبد العزيز".(٣٤)

وفى هذه الاثناء، كان السلطان عبدالعزيز قد إنتقل إلى قصر "فريه" الموجود فى "اورطه كوى" مع أقربائه الذين بلغ عددهم ثلاث مائة ومع الأشخاص الموجودين فى خدمته. وبعد ثلاثة أيام،انتحر فى القصر قاطعًا معصمه.(٣٥)

وبعد حادثة خلع السلطان عبدالعزيز عن العرش وقتله توالت المواقف المختلف حولها بين مدحت باشا والسلطان عبدالحميد منذ أن عمل مدحت باشا واليًا لبعض الولايات حتى القبض عليه وحبسه فى قلعة الطائف بالسعودية. ومن الأحداث التى وقع بسببها خلاف جوهرى بينهما ما ذكره حفظى طوبوز فى روايته عن وضع مدحت باشا لإشارة الهلال مع الصليب فى العلم العثماني أثناء وجوده فى ولاية "نيش" حيث قال:

قام مدحت باشا بجمع كتيبة من الجنود المتطوعين من النصارى. واضيف الصليب إلى جانب الهلال فى أعلام هؤلاء الجنود. وبهذا يكون لأول مرة فى تاريخ الدولة العثمانية قد

(33)_ Mithat Paşa, Rüştü Paşa, Hüseyin Avni Paşa, Şeyhülislam Hayrullah Efendi ve Kayserili Ahmet Paşa bir akşam bir araya geldiler. Durumu değerlendirdiler. Tek çare Abdülaziz'in tahttan indirilmesiydi. Başka çare yoktu.... Ama yerine kimi tahta çıkartacaklardı?. Abdülaziz'den sonra osmanlı hanedanının en yaşlı erkeği Murat Efendi'ydi. Padişahlık onun hakkıydı. Kuralları hiç bozmadan onu tahta çıkartmak gerekiyordu.
-Hıfzı Topuz, Taif' te ölüm, s. 80.
(34 )_ Hıfzı Topuz, Taif' te ölüm, s. 81.
(35 )_ Hıfzı Topuz, Taif' te ölüm, s. 86 _ 87.

شكلت كتيبة تحمل فى رايتها الهلال والصليب... وكان مدحت باشا يريد أن يدلل على أن الدولة العثمانية لا تعتمد على الإسلام فقط.(٣٦)

وقد جعل هذا التصرف السلطان عبدالحميد يرتاب من شخصية مدحت باشا وفكره، كما كانت نقطة خلاف بينهما لإن السلطان عبدالحميد لم يكن راضيًا عن هذا السلوك، وأن الحرية والمساواة التى ينادى بها مدحت باشا لم تكن عند السلطان عبدالحميد هى التنازل عن القواعد والاعراف المعمول بها فى الدولة.

ويقول السلطان عبدالحميد الثاني فى مذكراته أنه لم يكن بوسعه تسليم الدولة لمدحت باشا الذى كان يعتمد على الإنجليز أعداء الدولة العثمانية، والذى وضع إشارة الصليب على زاوية العلم التركى أثناء ولايته على "نيش".(٣٧)

وواضح من ذكر عبدالحميد لهذه الواقعة فى مذكراته بعد عزلة عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م أنها لم ترق له ولم يكن راضيًا عن هذا السلوك فى هذه الفترة الحرجة من عمر الدولة العثمانية.

ومن مساعى مدحت باشا التى لم تُرق لعبدالحميد الثانى، بل وعارضها ولم يوافق عليها وقللت من إعتبار مدحت باشا عند السلطان هو هذه الإجراءات التى كان يحاول إيجادها على أرض الواقع كجزء من التحرر والخلاص من الاستبداد، وذكر حفظى طوبوز هذا الأمر فى روايته موضع الدراسة على هذا النحو:

كان مدحت باشا مع تقليص مصالح القصر، لكن السلطان كان لا يستحسن ذلك. وكان مدحت باشا يدافع عن عدم فصل أى موظف من عمله دون تحديد تهمته. أما السلطان عبدالحميد كان لايريد أن يُقر بأى شرط قط فى هذا الموضوع. كما كان مدحت باشا مع تحرير العبيد والجوارى الموجودين بالقصر. أما السلطان عبدالحميد الثانى لم يكن ينوي صرف النظر عن عبيده حيث كانت هناك عظمة وأبهة فى تقاليد القصر، وكان يوجد إسراف وجوارى، فكيف يمكن أن يصرف السلطان النظر عن هؤلاء؟، وعندئذ ماذا ستستفيد السلطنة؟. كان مدحت باشا من أكثر المدافعين عن الدستور بحماسة. وكان يسعى لإعلان

(36 )_ Hıfzı Topuz, Taif' te ölüm, s. 87.
(37 ) _ Prof.Dr. İsmail Çetişli ve diğerleri, A.G.E, s. 17.

الدستور وتطبيقه منذ البدايات. ولكن بمجرد أن يتم تناول هذا الموضوع يظهر الخلاف مع السلطان.(٣٨)

وبالإضافة إلى هذا، فإن مدحت باشا أراد أن يطبق بعض الإجراءات التى كان يرى فيها من وجهة نظره الحرية والمساواة بين رعاية الدولة ولكن السلطان كان يعارضها بشدة لأنه كان يرى فيها تقويض لأركان الدولة ومن هذه المساعى الخلافية ما ذكره حفظى طوبوز فى قوله التالى :

كان مدحت باشا يريد أن يلتحق الطلاب غير المسلمين بالمدارس الحربية. لكن السلطان والمتمسكون بأعراف الدولة عارضوا هذا.(٣٩)

وقد تطرق السلطان عبد الحميد الثاني لهذا الموضوع فى مذكراته بقوله:

إن مدحت باشا قام بمساعي سوف تهدم الدولة من أساسها مثل تعيينه ولاة من الأقليات على الولايات التى يمثل فيها المسلمون أكثرية، وأن يدخل الطلاب الروم المدرسة الحربية التى تمثل أساس الجيش، ولكن السلطان عبدالحميد الثانى لم يستطع أن يوقع على قراراته.(٤٠)

كما أن تصرفات مدحت باشا منذ البداية باستعلاء تجاه السلطان والقصر من الأمور التى أوجدت شيئًا من الفتور بين مدحت باشا واالسلطان عبدالحميد الثانى. ومن هذه التصرفات ردة فعله تجاه الهدايا التى اعطتها والدة السلطان عبدالحميد الثانى لزوجته "شهريبان" وأيضًا منحها براءة برتبة لإبنه "على حيدر" وهو لا يزال طفلًا، ورد مدحت باشا هذه الهدايا حتى لا يكون مدان للسلطان بشئ. وكان هذا السلوك من مدحت باشا من أولى التصرفات التى أوجدت حالة من الفتور بينهما. وقد ذكر حفظى طوبوز هذا الوضع على هذا على النحو :

(38)_ Hıfzı Topuz, Taif'te ölüm, s. 101.
(39) _ Mithat Paşa müslüman olmayan öğrencilerin de Harbiye'ye girmelerini istemişti. Padişah ve tutucular buna karşı çıktılar.
Hıfzı Topuz, Taif'te ölüm, s. 102.
(40) _ Prof.Dr. İsmail Çetişli ve diğerleri, A.G.E, s. 17.

وفى أثناء مغادر "شهريبان هانم" للقصر أعطيت لها علبتان كبيرتان. كان يوجد فى أحدهما قلادة مطرزة. وكان مثبت وسط القلادة قطعة الماس ٣٢ قيراط: وكانت هدية "على حيدر" ساعة ذهبية مزججة، وبراءة ترقية لرتبة.

ولما عادت شهريبان هانم مع إبنها للقصر وقت المساء قصت على الفور هذه الأحداث، وأظهرت براءة الترقية والهدايا التى أخذوها. ولكن مدحت باشا لم تعجبه هذه الأشياء قط. واعتبر أن قبول الهدايا من السلطان سيجعله يشعر بأنه مدان له ... وأعاد براءة الترقية التى أعطيت لإبنه وقال بأنه لا يمكن أن تُعطى براءة ترقية لطفل فى عمر الرابعة. وكانت تصرفات مدحت باشا العنيفة والقاسية هذه والتى ليس فيها تنازل قط هي بداية دخول الفتور بينه وبين عبد الحميد الثانى.(٤١)

كانت هذه التصرفات من مدحت باشا علاوة على اشتراكه فى خلع السلطان عبدالعزيز السبب فى عدم ثقة السلطان عبدالحميد فيه. وقد أشار السلطان عبدالحميد الثانى فى مذكراته إلى هذا بقوله :

كان مدحت باشا واليًا جيدًا. ولكن إدارته للسياسة كانت خطأً وكان كثير الإختلاط بهؤلاء الذين كان السلطان والوزراء يشتبهون فيهم... وباشتراك مدحت باشا فى عملية خلع السلطان عبدالعزيز انتقل من مصاف رجال الحكم إلى عداد الثوار. ولا يستطيع حاكم قط أن يثق في رجل اشترك في عملية خلع حتى ولو كان الحاكم الجديد خصم حياة الحاكم القديم.(٤٢)

(41) – Şehriban Hanım'a Saray'dan ayrılırken iki büyük kutu verildi. Bunların birinde işlemli bir gerdanlık vardı. Gerdanlığın orta yerine 32 kratlık bir elmas yerleştirilmişti. Ali Haydar'ın hediyesi de mineli bir altın saat ve bir rütbe beratı idi.

Şehriban Hanım, oğluyla birlikte akşamüstü konağa dönünce hemen bu olayları anlattı, aldıkları hediyeleri ve rütbe beratını gösterdi. Ama Mithat Paşa bunlardan hiç hoşlanmadı. Padişah'tan hediye kabul etmekle kendisini borçlu hissedecekti. Oğluna verilen rütbe beratını Saray'a geri göndererek dört yaşında bir çocuğa rütbe verilemeyeceğini belirtti. Mithat Paşa'nın hiç ödün vermeyen sert ve katı davranışları Abdülhamit'le aralarına bir soğukluk girmesinin başlangıcı oldu.

Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 100 – 101.

(٤٢) ـ موفق بني المرجه، مرجع سابق، ص ٥٦.

وتنوعت الوقائع التي بذرت بذور الشقاق والخلاف بين عبد الحميد الثاني ومدحت باشا على مدار عمله الوظيفي في الدولة. ومن بين هذه الأعمال التي قام بها مدحت باشا ولم تلقَ استحسانًا عند السلطان عبد الحميد الثاني، ما وقع منه حينما كان واليًا على " طونه ". وذكر ذلك " حفظي طوبوز " في ثنايا روايته أثناء حديث السلطان عبد الحميد مع سعيد باشا عن مكانة مدحت باشا بعد نفيه حيث سرد الكاتب على لسان السلطان قوله:

سعيد باشا سأتحدث معك بصراحة إنني لا أستطيع أن أنكر مكانة مدحت باشا، فقد كان واليًا نشيطًا ونزيهًا. ولكن كانت له عيوب بقدر مميزاته. كان لا يفهم شيئاً عن السياسة... فحينما كان واليًا على " طونه " أراد تدريس اللغة البلغارية في مدارس بلغاريا. وهذا الأمر كانت له تبعات وخيمة.(٤٣)

وفي الواقع لم تصدر هذه الأعمال من مدحت باشا عفويًا وإنما كانت تصدر منه طبقًا لقناعاته هو بالصورة الجديدة التي ينبغي أن تكون عليها الدولة من حرية ومساواة وديمقراطية كما شاهد في رحلته إلى اوروبا واطلاعه على مؤسسات الحكم في فرنسا وانجلترا. ولكنه لم يكن يدرك أن مثل هذه التصرف في تدريس اللغة البلغارية في مدارس بلغاريا ربما يفتح الطريق للقومية البلغارية والمطالبة بانفصالها.

ويأخذ بعض المؤرخين على مدحت باشا أنه لم يكن بالرجل السياسي المتسع الذكاء ولم يكن برجل الدولة المجرب الخبير ولم يستطع القيام بواجبه في إدارة الدولة مركزيًا. كما يأخذ بعض المؤرخين الآخرين على مدحت باشا أنه رغم كونه واليًا ناجحًا فقد كان صدرًا أعظمًا قليل الخبرة.(٤٤)

وهناك واقعة أثارت ثائرة عبد الحميد الثاني من مدحت باشا. وقد ذكر " حفظي طوبوز " هذه الواقعة في القسم الخامس من روايته المعنون باسم " الصدارة العظمى الثانية " حيث

(43) _ " Paşa" dedi, " sana açıkça söyleyeceğim, ben Mithat Paşa' nın değerini inkaredemem. Çalışkan ve namuslu bir valiydi, ama meziyetleri olduğu kadar noksanları da vardı. Politikadan hiç anlamıyordu. Tuna valisiyken Bulgar okullarında Bulgarca okutulmasını istedi. Bu iş çok ağır sonuçlar verdi."
Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 116.

(٤٤) _ موفق بني المرجه، مرجع سابق، ٥٦.

سرد هذه الواقعة في الحوار الذي كان دائرًا بين مدحت باشا وسكرتيره " كليكيان واصف افندي " على هذا النحو:

حضرة الباشا إن الحدث الذي أثار ثائرة السلطان هو: لقد القيتم خطابًا بعد قراءة الخط الهمايوني الذي أُعلن بمقتضاه اعلان المشروطية. وكانت قد انطلقت الادعية عقب ذلك، وأضيئت أنوار المنازل والدكاكين. وكانت أيضًا قد أُطلقت المدافع من ثكناتها. وها هو في تلك الليلة أنتم تعرفون أن الشباب جاءوا إلى أمام قصركم وهتفوا قائلين:" ليعش سلطاننا عبد الحميد خان! ليعش مدحت باشا". ولم يستحسن السلطان هذا الأمر على الإطلاق؛ لأنه لم يُهتف بالقول " ليعش" لأي شخص خلافه. يعني أن السلطان قال إن نية مدحت باشا أخذ مكاني!.[٤٥]

وحقيقة الأمر أن المواقف التي كانت تفرق بينهما أكثر من التي كانا يجمعان عليها. لأن الفكر مختلف والرؤية مختلفة والخبرة السياسية لصالح السلطان عبد الحميد الثاني. علاوة على أن مدحت باشا كان يريد زوال حكم آل عثمان ويحل محله حكم ديمقراطي يشارك فيه كل طوائف المجتمع سواء المسلم أو المسيحي أو الأرمني أو الكردي... الخ. لكن السلطان عبد الحميد كان يؤمن بالإصلاحات ولكن ليست على طريقة مدحت باشا وإنما بما يتوافق وطبيعة الفترة وثقافة ووعي الشعب بما سيستجد من اصلاحات مقتبسة من الغرب. وهذا التباين هو لب الخلاف بين مدحت باشا وأنصاره مع عبد الحميد الثاني ونظامه الحاكم.

ويكمل واصف أفندي حديثه مع مدحت باشا قائلًا: حضرة الباشا لما ظهرت بوادر اشاعة بعد مظاهرات هذا المساء تغير الأمر. يقول السلطان عليك إنك خائن. ومنذ أن اعتلى العرش يقول عليك وعلى رشدي باشا: " هؤلاء الرجال لا يمكن أن يخدموا الوطن والأمة. هؤلاء خونة. لأنه حسب أخلاقهم وضعوا في عقولهم إهانة آل عثمان. ومقصدهم هو إعلان

([45]) _ Paşa hazretleri, Zatışahane'yi çileden çıkaran bir olay da şu: Hani siz meşrutiyetin ilanını bildiren hattı hümayunun okunmasından sonra bir konuşma yapmıştınız ya. Arkasından dualar edilmişti, gece evler ve dükkanlar ışıklandırılmıştı, kışlalardan toplar atılmıştı ya. İşte, o gece, biliyorsunuz gençler konağınızın önüne geldiler, ' Yaşasın Sultan Abdülhamit Han! Yaşasın Mithat Paşa!' diye bağırdılar. Hunkar bundan hiç hoşlanmamış. Kendisinden başkası için ' Yaşasın ' diye bağrılamazmış. Demek ki, demiş, Mithat Paşa' nın niyeti benim yerimi almak!:
Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 105 _ 106.

الجمهورية. ولهذا، يبدون التسامح نحو الشعب ويدافعون عن نظام الحكم البرلماني. أنا أريد نظام الحكم البرلماني وليس هم. هم نواياهم سيئة؛ توجهوا لأخذ الدولة من يد آل عثمان الذين لهم ستمائة سنة ".[٤٦]

وعلى الرغم من تعيين السلطان عبد الحميد الثاني لمدحت باشا صدرًا أعظمًا، فإن هذا الأمر لم يُذب الخلاف بينهما ولم يغير في وجهات نظر وأيديولوجيا مدحت باشا. بل ظل الحال على هذا المنوال، كل واحد منهما يبغي الصلاح للدولة وفق منهجه ورؤيته. ولكن بلغ السيل الزبى وطفح الكيل عند السلطان عبد الحميد لما طلب مدحت باشا منه التنحي وترك السلطنة. ويقول حفظي طوبوز في هذا الصدد ما يلي:

قدم مدحت باشا طلبًا للسلطان ورجى منه أن يترك الحكم لشخص يثق فيه. وكان هذا الطلب بمثابة القطرة التي جعلت الكوب يطفح، فكان قرار السلطان عزله من الوزارة العظمى. ومنذ أن تولى مدحت باشا الصدارة تحدث بعض المعاملات السيئة بينه وبين عبد الحميد. وأحد هذه الخلافات كانت مشكلة العثمانيين الجدد. كان السلطان عبد الحميد يريد أن يبعدهم عن اسطنبول أما الصدر الأعظم كان يعترض على ذلك. وبينما كان عبد الحميد يوسد على العرش وعد بتعيين نامق كمال في وظيفة "مابين"[٤٧]، وضيا باشا في وظيفة "باش كاتب المبين"[٤٨]. وبعد ذلك، لم يوف السلطان بوعده، وعلاوة على ذلك فإنه أراد إبعاد كل العثمانيين الجدد. لكن مدحت باشا كان لا يقدر على تنفيذ أي مقترح يخالف ميوله ورغباته.[٤٩]

---

( 46 ) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 106.

(٤٧) _ المابين هو تعبير يستخدم بخصوص دائرة سلاملك في قصر السلطان. وكان يستخدم في صورة " مابين هما يون". وعلى هذا، فعندما يذكر لفظ "مابين" كان يفهم منه أن المقصود هو القصر. كما أن المابين هو الجزء الواصل بين دائرة الحرم والسلاملك ببعضهما. وما بين باللغة العربية تعني بين الشيئين وكان يقال عليه " ذو الوجهين".

_ Mehmet Zeki Pakalın, Osmanlı Tarihi Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, 2.cilt, Milli Eğitim Basımevi, İstanbul 1993, s. 375.

(٤٨) _ كان "باش كاتب المابين" لقب يطلق على الموظف الذي على رأس الهيئة التي تدير أمور الكتابة في السراي. وبتعريف آخر كان اسم الموظف الذي يرأس أمور الكتابة التي تدير المراسلات بين السلطان العثماني والصدر الأعظم الذي يرأس تشكيلات الحكومة. وكان الاسم القديم لهذه الوظيفة " كاتب السر". وكان يقال على المعنيين بأمور كتابة السراي " كاتب المابين"، وعلى رئيس هؤلاء "باش كاتب المابين".

_ Mehmet Zeki Pakalın, Osmanlı Tarihi Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, s. 375.

(49) – Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 107.

وامتد الخلاف بين عبد الحميد وأنصار مدحت باشا إلى أبو الضيا توفيق الذي يوضح في رسالة كتبها إلى " سعيد باشا " أسباب المعارضة للنظام والخلاف معه حيث يقول ما يلي: لقد قمت بتبيض مسودات القانون الأساسي. وكانت المطبعة العامرة مغلقة في منتصف الليل، فذهبت وأمرتُ بفتحها. وبأمر من الصدر الأعظم قدمت اللائحة للطباعة. وأرسلت اللائحة لكم، وأنتم أضفتم لها المادة ١١٣.

- أنتم طردتم مدحت باشا من الدولة.
- وألقيتم بنامق كمال في الحبس.
- أخذتم إدارة الجيش من يد أصحاب الصلاحيات وأعطيتموها إلى قصر ييلديز.
- أعلنتم الإدارة العرفية.
- أمرتم بإغلاق مجلس الأمة بإعطائكم الأمر لأحمق مثل أحمد وفيق باشا.
- أخذتم صلاحيات الباب العالي إلى القصر.
- كل الفساد الموجود في السياسة الداخلية والخارجية يصدر منكم.
- هيئة الوكلاء الي أسستموها تشكلت من ممثلين لا يعرفون أي مسرحية سوف يمثلونها في مشاهد المسرح.
- لو أنكم تريدون خدمة الأمة بشكل جاد فعليكم الانسحاب من الصدارة.(٥٠)

(50) _ Kanunu Esasi'nin müsveddelerini ben temize çektim, Matbaa-i Amire gece yarısı kapalıydı, gidip açtırdım, tasarıyı Sadrazam'ın emriyle baskıya verdim. Tasarı size gönderildi, siz buna 113'üncü maddeyi eklediniz.
_ Midhat Paşa'yı memleketten siz ihraç ettiniz.
_ Namık kemal'i hapse siz attırdınız,
_ Ordunun yönetimini yetkililerin elinden alarak Yıldız Sarayı'na siz verdiniz,
_ Sıkıyönetimi siz ilanettirdiniz,
_ Ahmet vefik Paşa gibi bir ahmağa emir vererek Millet Meclisi'ni siz kapattırdınız.
_ Babıali'nın yetkilerini Saray'a siz aldırdınız.
_ İç ve dış politikadaki bütün bozukluklar sizden kaynaklanmıştı.
_ kurduğunuz vekiller heyeti tiyatro sahnelerinde oynayacakları oyunun ne olduğunu bilmeyen aktörlerden oluştu.
_ Bu memlekete cidden hizmet etmek istiyorsanız sadaretten çekilin.
Hıfzı Topuz, A.G.E, s.173 _ 174.

كانت نقاط الخلاف هذه، بين مدحت باشا وانصاره مع السلطان عبد الحميد الثاني، تمثل وتيرة من الصراع مع السلطة بغية تحقيق الاصلاحات التي يتمنونها ونظام حكم كما شاهدوه في الدول الغربية التي زاروها. وخلال هذا الصراع بين مدحت باشا وانصاره مع السلطان تحققت لهم بعض المطالب ومنها الدستور والبرلمان.

*** مسعى مدحت باشا لاصدار الدستور وتعميق الخلاف بينه وبين السلطان.**

كان مدحت باشا قد طلب من الوزير الأعظم "عالي باشا"(١٢٣١هـ – ١٢٨٨هـ/ ١٨١٥م – ١٨٧١م) السماح له بالسفر لأوروبا حتى يتسنى له تعلم اللغات الأوروبية والإطلاع على ما في البلدان الأوروبية وأنه بدون ذلك سيبقى بمنأى عن العالم. ووافق "عالي باشا" على سفر مدحت باشا... وخلال هذه الرحلة استجدت عنده كثير من المفاهيم منها مبدأ فصل السلطات؛ يعني فصل السلطة عن القانون وعن الدستور. وقنع مدحت باشا بهذا المبدأ وسعى لتطبيقه طيلة حياته. كما دافع عن عدم تدخل السلطان في إدارة الدولة والهيئات القضائية والمجلس.[٥١]

وأثناء وجود مدحت باشا في فرنسا، كان قد أُعجب كثيرًا بمجلس شورى الدولة الذي أسس بدستور ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م وكان يتمنى بأن يؤسس مثله في الدولة العثمانية[٥٢]. ولما عاد مدحت باشا إلى اسطنبول عام ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م كانت في جعبته أشياء كثيرة ينوي القيام بها. ولكن لمن يشرح هذه الأشياء؟. كان الشخص الوحيد الذي يمكنه الحديث معه هو الصدر الأعظم، فشرح له كل ما رأى في أوروبا وعرض عليه بعض المقترحات[٥٣]. وافق الصدر الأعظم "عالي باشا" على إنشاء المجلس الذي اقترحه عليه مدحت باشا وطلب منه عالي باشا التجهيز لهذا المجلس الذي سيُسمى باسم مجلس شورى الدولة. وعُين مدحت باشا على رأس هذا المجلس[٥٤]. وعُرض الأمر على السلطان عبد العزيز، ورغم أنه كان يرتاب

(51 ) Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 25 _ 29.
(52 ) Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 30.
(53 ) Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 33.
(54 ) Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 35.

من الأمر في البداية لكنه وافق في النهاية على انشاء المجلس الذي يتكون أعضاؤه من ٢٨ عضو مسلم و١٣ عضو مسيحي. وافتتح المجلس في ١٢٨٥هـ/ ١٠ مايو ١٨٦٨م.[٥٥]

ولما ارسلت والدة السلطان عبد العزيز "أغا دار السعادة"[٥٦] "جوهر أغا" إلى مدحت باشا تسأله الحل لهذا الوضع المتأزم وما هي اقترحاته، فبعدما بين مدحت باشا لها في التقرير الذي ارسله اسباب هذا الوضع، اقترح عليها الآتي:

– ضرورة إقرار الحرية والمساواة لكل فرد يعيش في الدولة العثمانية.

– لابد من إصدار الدستور الذي يحدد صلاحيات ومسئوليات هيئة الوكلاء. ولكن مدحت باشا لم يأخذ ردًا على هذا من والدة السلطان سوى مذكرة بها " قرأت اللائحة واعجبتني وإن شاء الله تُنفذ "، ولم يكن لديها الجرأة على عرض مقترح مدحت باشا على السلطان عبد العزيز.[٥٧]

ويبدو من أحداث الرواية ومن حقائق التاريخ أن مدحت باشا وأنصاره كانوا منبهرين بما رأوه في الغرب من نظم الحياة ومؤسسات وقوانين تدير الدولة. وظنوا أن إنشاء مثل هذه المؤسسات والقوانين سينقذ الدولة من حالة التردي والإنهيار. وقنع مدحت باشا بهذا تمام الاقتناع ولم يدع فرصة يمكن الحديث فيها عن البرلمان والدستور إلا وتحدث عن ذلك، رغم أن كل الحقائق التاريخية تشير إلى أن مدحت باشا لم يدرس شيئاً عن القانون لا في تركيا ولا في خارج تركيا ولم يكن على دراية تامة بالقوانين أو الدساتير مع إعجابه الشديد بتأثيراتها على الحياة.

كان يريد أن يطبق هذه النظم الإدارية داخل المجتمع العثماني متجاهلًا الفوارق المجتمعية من عادات وتقاليد ونضج فكري وثقافي، ولم يراع أن ما يصلح لمجتمع لا يصلح لمجتمع آخر. وكان هذا الإصرار من مدحت باشا على الدستور والبرلمان والحرية دون النظر إلى

---

([55]) Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 36 _ 37.

([٥٦]) _ هو لقب لواحد من كبار موظفي القصر. وكان أغا دار السعادة من أغوات الخدم السود. وكان الأغا أكبر رتبة في القسم الداخلي للقصر. وكان منصبه أعلى مكانة من أغا الباب ومن سلحدار أغا، وكانت رتبته تأتي بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام. وكانت مهمته حراسة قسم الحرم الهمايوني الخاص بنساء القصر. وكان يوجد تحت أمره أغوات حرم أخرين سود لخدمة الحرم الهمايوني.

- Mehmet Zeki Pakalın, A.G.E, c.2, s. 279.

([57]) Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 78 _79.

وضعية المجتمع العثماني ودون مناقشة لهذه الأمور التي ستؤخذ من الغرب هو سبب الخلاف بين مدحت باشا وأنصاره والسلطان عبد الحميد الذي لم يكن يعارض أبدًا فكرة الإصلاح ولكن الإصلاح النابع من داخل حاجات المجتمع وما يتماهى مع حضارته وفكره وثقافته.

وذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته: لم يرَ مدحت باشا غير فوائد الحكم المشروطي في أوروبا، ولكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ( البرلمان) ولا تأثيراتها الأخرى. أقراص ( السلفات) لا تصلح لكل مرض أو لكل بنية، وأظن أن أصول المشروطية لا تصلح لكل شعب ولكل بنية قومية. كنت أظن أنها غير مفيدة، أما الآن فإنني مقتنع بضررها.(٥٨)

كما ذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته: لم يكن مدحت باشا قد درس أي قانون دستوري في أية دولة من الدول عندما اقترح ضرورة اعلان الدستور، ولم يكن له في هذا الموضوع فكر متأصل. كان "اوديان افندي" استاذه الفكري، واوديان افندي هذا لم يكن في ذلك الوقت أفضل مشرع عندنا، خاصة أنه لم يكن يعرف البلاد. وأظن عدم المعرفة هذه ذهبت مع مدحت باشا حتى قلعة الطائف.(٥٩)

كان مدحت باشا من أشد المدافعين عن الدستور وكان يسعى لإعلان الدستور والعمل به. ولكن ما إن يتم تناول هذا الموضوع حتى يظهر الخلاف مع السلطان.(٦٠)

وأثناء حديث السلطان عبد الحميد مع سعيد باشا عن مكانة مدحت باشا يقول السلطان عبد الحميد: عندما كُلف مدحت باشا بإعداد الدستور لم تكن لديه معلومة حول هذا الموضوع فقد أعد هذا المقترح سويًا مع مدحت باشا كل من ضيا باشا ونامق كمال بك وعابدين باشا وسليمان باشا. ولكن كانوا غير قادرين على التفاهم فيما بينهم. وأنت أيضًا تعرف أن المعارضين للدستور كانوا أكثر. فقد جاءني أدهم باشا وثروت باشا وبعض الوزراء ورجال الدولة وقالوا: " لا يمكن إعطاء الحرية في الكلام في أي بلد دون التجهيز لذلك".(٦١)

(٥٨) – موفق بني المرجه، مرجع سابق، ص ٥٩ – ٦٠.
(٥٩) _ موفق بني المرجه، مرجع سابق، ص ٦٠.
(60) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 101 _102.
(61) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 116 .

ويقول حفظي طوبوز على لسان السلطان عبد الحميد الثاني أثناء حديثه مع سعيد باشا: إن المؤسسات عندنا لا تشبه ما هو موجود عند الغرب. وإن الشعب التركي لا يزال بسيط وليس لديه علم وفير... كما أن بلدنا ليست ناضجة بالقدر الكافي حتى يمكن أن تدار بالنظام البرلماني. وسيكون هذا مصيبة علينا. وجماعة العثمانيين الجدد مفرطين في الخيال. وهم غير مدركين لهذا الأمر. وإن رعاية الإنجليز لجماعة العثمانيين الجدد بكل الوسائل أمر مقلق للغاية... ومدحت باشا لم يستطع فهم هذه الأمور.(٦٢)

ويتضح من الحوار الذي دار بين مدحت باشا والسلطان عبد الحميد الثاني حينما كان وليًا للعهد مدى حرص مدحت باشا على تأسيس الدستور والعمل به وتشكيل برلمان يُسمع داخله صوت الشعب، فيعرض الكاتب حفظي طوبوز لهذا الحوار على النحوالتالي:

_ مدحت باشا: لقد نضج هذا الشعب كثيرًا، ومن غير الممكن تطبيق نظام حكم على غير رضاه. ويجب تشكيل برلمان حتى يمكن سماع صوت الشعب. أنتم تعلمون أنه توجد مجالس على هذا النحو في عموم الدول الأوروبية حيث تُناقش فيها أولًا كل القرارات التي ستتخذها الدولة، ولا يستطيع الحاكم أن يأخذ قرارات شخصية تخالف الشعب والمجلس.

_ رد السلطان عبد الحميد قائلًا: صحيح يا سيدي.

– مدحت باشا: وبهذا يكون قد أُسس رباط قوي بين الحاكم والشعب، ويكون الشعب أيضًا قد اشترك في الحكم.

– رد السلطان عبد الحميد قائلًا: جميل جدًا حضرة الباشا جميل جدًا. إن شاء الله سوف تكون إدارة على هذا النحو من نصيبنا.

– مدحت باشا: حضرة ولي العهد لو تقبلون في الأساس مبادئ حكم على هذا النحو فلن تكون هناك مشكلة، وتعلنون أن الإمبراطورية العثمانية سوف تُحكم بالنظام البرلماني. وسوف

(62) _ Bizde müesseseler Batı'dakine benzemez. Bizde halk henüz çok bilgisiz ve çok saftır.... idare edilebilmek için memleketimiz yeter derecede olgun değildir. Bu bizim için felaket olur. Bizim Jön Türklerimiz hayalperesttir, onlar işin hiç farkında değiller. İngilizlerin de her vesileyle Jön Türkleri tutmaları da çok düşündürücüdür... Mithat Paşa bunları anlayamadı.

_ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 117 _ 118 .

توضح كل هذه الأمور في الخط الهمايوني الذي سوف تقرأه بعد مراسم الجلوس على العرش، لهذا سوف تعلن بأنه سيُعد الدستور وسوف ينعقد البرلمان.(٦٣)

وقال مدحت باشا مخاطبًا سكرتيره الخاص " كيلكيان واصف أفندي": واصف انت تعلم أن اليوم أمور الدولة في يدي وأنا أدير كل شئ. وإنني أتمنى أن أقيم نظامًا جمهوريًا. ولكن بلدنا لم تصل إلى هذا النضج السياسي، فعلينا أن نعمل كثيرًا. إنني أريد نظامًا برلمانيًا. يبقى السلطان على رأس السلطة، ولكن سوف تحدد كثيرًا صلاحياته، ويحكم البرلمانُ الدولةَ. وقلنا هذا بصراحة. وسوف يعتمد الدستور الذي أعددته على هذا النحو... وأن المقصد الأساسي عندنا حتى اليوم هو إقامة نظام جمهوري.(٦٤)

والواضح من خلال سير أحداث الرواية والوقائع التاريخية والأعمال التي تتصدى بالدراسة عن مدحت باشا أنه كان حريصًا كل الحرص على التغيير واقرار الدستور الذي يحد من صلاحيات السلطان الحاكم المطلق وتبنى هذا المنهج هو ورفاقه من الإصلاحيين رغم قلة خبرتهم في العمل السياسي، لأن معظمهم كانوا من رجالات الأدب وليس من الفصيل المعني بالحكم والسياسة. ولذا أرادوا أن يكون الإصلاح إصلاحًا جزريًا بهدم كل مؤسسات الدولة واحلال المؤسسات الأوروبية محلها دون دراسة ذلك واجراء مناقشات حول ما يصلح للدولة وما لا يصلح.

(63 ) _ Mithat Paşa: '' Bu halk artık olgunlaşmıştır. Ona ters düşecek bir yönetim uygulanmaz. Halkın sesini duyabilmesi için de bir meclisin toplanması gerekir.Biliyorsunuz, bütün Avrupa ülkelerinde böyle meclisler var. Devletin alacağı bütün kararlar önce oralarda görüşülüyor, hükümdar da halka ve meclise ters düşecek keyfi kararlar alamıyor.''

_ sultan Abdulhamit: '' Ne kadar doğru efendim.''

_ Mithat Paşa: '' Böylece hükümdarla halk arasında çok sıkı bir bağ kurulmuş oluyor, halk da yönetime katılmış oluyor.''

_ sultan Abdulhamit:'' Çok güzel, Paşa hazretleri, çok güzel. Böyle bir yönetim bize de nasip olur inşallah.''

_ Mithat Paşa: '' Veliaht Hazretleri, siz temelde böyle bir rejimin ilkelerini Kabul ediyorsanız sorun yok, o zaman Osmanlı İmparatorluğunun bundan böyle meşrutiyet rejimiyle yönetileceğini ilan edersiniz. Cülus töreninin ardından okuyacağınız hattı hümayunda da bütün bu hususlar belirtilir, bunun için bir Kanunu Esasi'nin hazırlanacağını ve bir meclis –i mebusanın toplanacağını açıklarsınız.''

_ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 93 _ 94.

(64 ) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 104.

وكان قد أُعد الدستور الجديد في إطار ميوله. وكان هدفه اقرار نظام برلماني في الدولة بالإطاحة بالسلطة المطلقة. وفي سبيل ذلك كانت ستقلص صلاحيات السلطان وتجري تغييرات قانونية وإدارية ضرورية لتأسيس سلطة ديمقراطية. وكان مدحت باشا يريد أن يؤسس نظامًا برلمانيًا ولكن السلطان عبد الحميد الثاني كان غير متحمس لهذا الحدث.(٦٥)

ولكن في نهاية الأمر وافق السلطان عبد الحميد على اعلان الدستور حيث قال في مذكراته: لم أكن أستطع الوقوف أمام تيار ذلك العهد، وقلت ( ما دامت الأمة تريد تجربة مسئولياتها عن مقدراتها وحكم نفسها فليكن ما تريده الأمة) واخترت من بين لوائح القانون الأساسية لائحة مدحت باشا، وصدقتُ عليها بعد أن أدخلتُ عليها تعديلات جزئية، واصدرت المرسوم السلطاني المعروف.(٦٦)

*** القبض على مدحت باشا ونفيه**

تدور معظم أحداث الرواية حول أوقات التوافق والخلاف بين مدحت باشا والسلطان عبد الحميد الثاني. وأول خلاف بين مدحت باشا والسلطان يبدأ مع المادة ١١٣ التي أضافها السلطان على الدستور، في الشهر الأول من تعيين مدحت باشا وزيرًا أعظمًا. وكانت هذه المادة هي أول انتصار للسلطان على مدحت باشا حيث أوقف السلطان بشكل دائم اجتماع المجلس التشريعي. ويظهر مدحت باشا ردة فعله تجاه هذه الأحداث برسالة حادة، يُعزل بسببها من منصب الوزارة العظمى ويُقبض عليه ويُنفى. وبعد هذا لا يتمكن من المجئ إلى اسطنبول مرة أخرى كمسؤول. ويؤتى بمدحت باشا للمحاكمة في ١٢٩٨هـ/ يونية ١٨٨١م. وفي نهاية وتيرة الصراع بين مدحت باشا وانصاره والسلطان عبد الحميد يُهزم مدحت باشا، ويساق إلى الموت.(٦٧)

ويقول السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته: في الحقيقة كنت دائم التخوف من مدحت باشا، ولكن وقت صدور حكم المحكمة رأيت أن إنسانًا معروفًا بهذا القدر يستوجب ألا ينفذ فيه حكم الإعدام. ثم ما الفائدة فيما لو قتلته...؟. إني اكتفيت فقط باتخاذ الإجراء الإحتياطي

(65 ) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 101.

(٦٦) _ موفق بني المرجه، مرجع سابق، ص ٦١.

(67) _ Hasan Sari Kaya, A.G.E, s. 51.

ضد اعتداء متوقع من مدحت باشا، الذي لو وجد الفرصة لايذائي لفعل، وهو ما كنتُ اتوقعه.[٦٨]

استدعى السلطان عبد الحميد القائد العسكري "سعيد باشا" الموجود في معيته وتشاور معه حول مدحت باشا، فقال سعيد باشا:" إن مدحت باشا غارق في المظهر الخادع بسبب شهرته ولا يطيع السلطان. كما أن مدحت باشا رجل خطير على الدولة وآل عثمان. وليس له هدف سوى قيام الجمهورية. ولأجل هذا، قام بالمباحثات مع السفراء. كما أن مدحت باشا يقول بأنه لن يأتي خير من آل عثمان ومن الضروري الانتقال إلى النظام الجمهوري". وأردف سعيد باشا قائلًا للسلطان: " إن نامق كمال كان سيذهب إلى قصر حضرة مراد بك (أي السلطان مراد) مع خمسة أو ستة آلاف شخص ويدعوه للجلوس على العرش؛ ولو أن مراد أفندي لم يقبل ذلك فإن كمال بك كان يخطط لأن يجعل شريف مكة سلطانًا بالحصول على ألف ليرة. ومع علم الصدر الأعظم لهذا الحدث أليس الأمر مدهشًا في أنه لم يقم بالقبض على من نظموا هذا العمل؟. يعني أنه هو شخصيًا رأس هذا الفساد. وهناك غير ذلك، فوفقًا لما ذكر في الجرائد أن مدحت باشا أعلن استقلاله وأن السلطان مراد وصل إلى مبتغاه". ولما سمع السلطان هذا الكلام جُن جنونه وقال لسعيد باشا: يا باشا اكتب فرمانًا حالًا وبيّن فيه:" ذُكر في المؤتمرات السرية التي عُقدت في قصر مدحت باشا < اعلن مدحت باشا استقلاله وسيصل السلطان مراد بعدئذ لمقصوده >، واحيط علمًا بأنه أسست بعض اللجان التي تعمل ضد السلطنة العلية. وعلى رأس هؤلاء كمال بك الذي يحميه دائمًا مدحت باشا. ولهذا السبب فإن عزل مدحت باشا على الفور ونفيه في حكم الأمر والفرمان". وكان السلطان قد اتخذ قرارًا بهذا، وسينفي في الحال مدحت باشا[٦٩]

ويذكر عبد الحميد الثاني في مذكراته: إن مدحت باشا يقول في الإجتماعات التي كان يعقدها في قصره مع أشخاص مثل نامق كمال وضيا باشا ورشدي باشا إنكم تقولون كثيرًا " لا يأتي خير بعد من آل عثمان. وليس هناك مناص سوى الذهاب إلى الجمهورية، وكيف يجب تحقيق هذا؟. ويدرك هذه المسألة بعض الأشخاص مثلكم. وقد ذُكر آل عثمان في

(٦٨) _ موفق بني المرجه، مرجع سابق، ص ٦٤ - ٦٥.

(69) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 107 _ 108.

العالم حتى اليوم، فماذا يحدث لو يذكر بعد ذلك آل مدحت"، وإن مدحت باشا أراد أن يطيح بآل عثمان ويُذكر هو بدلًا منهم، وأن مدحت باشا ماسوني يعمل لمصلحة الإنجليز.[٧٠]

ويذكر السلطان عبد الحميد أنه كان يستطيع أن يعفو عن مدحت باشا في تهمته في موت عمه السلطان عبد العزيز، ولكن كان لا يستطيع أن يعفو عنه إطلاقًا لتعاونه مع دول اجنبية كوزير وصدر أعظم عثماني. وبينما الأمر على هذا النحو، فإن السلطان يتذكر الخدمات التي قدمها للدولة أثناء فترة شغله واليًا، ويغير عقوبة الإعدام إلى السجن.[٧١]

وبعدما أحضر " باش ياور محمد باشا" "مدحت باشا" إلى القصر السلطاني بناءً على طلب السلطان، أُخذ مدحت باشا إلى حجرة في الطابق الأرضي، وجلس "سعيد باشا" إلى جواره ودار بينهما حوار على هذا النحو: لقد أخبر أنه منذ فترة يجتمع المنتمون للجمعيات السرية المعارضة للسلطنة في قصركم. وجاءت بالأمس جريدتان في هذا الموضوع. ولم يرد السلطان أن يصدق بأنكم تتعاونون معهم، ولكن بسبب تورط اسمكم في هذه الأمور فإنه أمر على الفور بإخراجكم اليوم من البلد. وأُعدت السفينة عزالدين لأجل هذا الأمر، وستتركون البلد حالًا.[٧٢]

وكان السلطان عبد الحميد الثاني، قد أمر في البداية بالحكم بالإعدام على مدحت باشا، ثم بعد ذلك استبدل عقوبة الإعدام بالحبس مدى الحياة، وأرسله إلى قلعة الطائف بالقرب من مكة... وبهذا يكون السلطان عبد الحميد الثاني قد تخلص من أكبر أعداءه.[٧٣]

*** قتل مدحت باشا**

ذكر مدحت باشا في أخر رسالة له إلى أسرته: " تأتي الأوامر كل يوم من اسطنبول لإنهاء وجودنا".[٧٤]

وبعد فترة من حبس مدحت باشا في قلعة الطائف أُرسل عقيد قديم يدعى "عمر بك" لقيادة القلعة بقرار من السلطان... ولو يُقتل مدحت باشا والباشوات الأخرين المحكوم عليهم في

(70) _ Prof.Dr. İsmail Çetişli ve diğerleri, A.G.E,s 17.
(71) _ Prof.Dr. İsmail Çetişli ve diğerleri, A.G.E,s 17_ 18.
(72) _ Prof.Dr. İsmail Çetişli ve diğerleri, A.G.E,s 111.
(73) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s.7.
(74) _ Vücutlarımızın ortadan kaldırılması için İstanbul' dan her gün emirler geliyor.
_ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 8.

القلعة، دون أن يسمع بهم أحد فإن عمر بك سيُعين في أرفع المناصب... ولهذا فإن عمر بك وضع تصور وخطط لمؤامرات مختلفة. وكانت الخطة الأولى التي جاءت لعقله أن يستولي على خدم الباشوات وأن يجعلهم يشتركون في الذنب(٧٥). وشرح عمر بك الأمر لـ "بكر أفندي" الذي أرسل من اسطنبول إلى الطائف في هذه الفترة وحاول " بكر أفندي " تطبيق هذه الخطة مع خدم الباشوات ولكنهم رفضوا خيانة اولياء نعمتهم وباءت هذه الخطة بالفشل.(٧٦)

وكانت المحاولة الثانية التي قام بها عمر بك لقتل مدحت باشا هي قتله بالسم. وقد ذكر مدحت باشا ذلك في الرسالة التي سطرها لوالي الحجاز "طوبال عثمان بك" حيث قال في رسالته:" يبدو أن عمر بك قائد القلعة كُلف بتسميمننا وصرح بذلك في بعض تصريحاته. وعلمتُ بأنه حرض خدمنا للقيام بهذه الجريمة. وسمع بهذا ليس الضباط والجنود فحسب، بل كل أهالي القلعة". "ومن ناحية أخرى حبسوا خدمنا في القلعة ولا يستطيعوا الخروج إلى الشارع سوى تحت رقابة الضباط والجنود فقط ومنعوا من الحديث مع الأخرين". "... ومن الواضح أنه ليس هناك شئ يمكننا القيام به للوضع الذي وقعنا فيه سوى التحمل بالصبر". ولهذا، فإنني ألجأ إلى الله وفي هذه اللحظات الأخيرة من حياتي أغض الطرف عن كل ما أتمنى في هذه الحياة الدنيا وأتمنى الموت".(٧٧)

(75) _Mithat Paşa Taif Kalesi'ne kapatıldıktan bir süre sonra Padişah'ın kararıyla kale komutanlığına Ömer Bey adında, yaşını başını almış bir albay gönderildi... Mithat Paşa ve kalede mahkum öteki paşalar sessiz sedasız öldürülecek olurlarsa, Ömer Paşa daha üst görevlere atanabilirdi... Bu yüzden Ömer Paşa türlü suikast planları tasarlamaya koyuldu. Aklına gelen ilk cinayet planı paşaların uşaklarını ele geçirerek onları suça ortak etmekti.
_ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 8.

(76 ) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 8 _ 11.

(77 ) _ Kale komutanı Ömer Paşa bizleri zehirlemek için görev almış görünüyor ve birtakım konuşmalarıyla bunu açıklıyor. Hizmetimizdeki uşakları bu cinayeti işlemek için kışkırttığını da öğrendim. Bunu yalnız subay ve verler değil, bütün Taif halkı duydu.

Öte yandan uşaklarımızı da kaleye hapsettiler. Uşaklarımız artık yalnız subay ve erlerin gözetimi altında sokağa çıkabiliyorlar. Başka insanlarla şonuşmaları da yasaklandı.

... düştüğümüz bu duruma sabırla katlanmaktan başka yapacağımız bir şey olmadığı da bellidir.

Bu nedenle Allah'a sığınarak ömrümün şu son demlerinde dünyadaki bütün isteklerimden vazgeçip ölümümü temenni etmekteyim...

_ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 11 _ 12.

ولم تنجح خطة دس السم لمدحت باشا أثناء ظهور الخراج في جسده حيث لم يقبل بالطبيب العسكري وشك في أمره ولم يثق فيه، وشُفيّ جراء وصفة طبية من الناس، وبَرئَ من هذا المرض وفشلت مكيدة السم. ورغم ذلك كان مدحت باشا في قلق يزداد تدريجيًا، لأنه كان يدرك أنه أُعدت خطط أخرى لقتله(٧٨). وعُين بعد ذلك ضابطًا اسمه مصطفى أفندي في رتبة نقيب للإشراف على طعام وشراب المحكوم عليهم في القلعة وظل يراقب الوضع عن كثب حتى شك في يوم من الأيام في اللبن أنه مسموم، فتذوقه ووجده مسموم، وتذوقه آخرون فوجدوه مسمومًا وكان الهدف من هذا هو قتل مدحت باشا بالسم. ولما شُرحت لمدحت باشا واقعة اللبن المسموم، لم يدهش مدحت باشا من ذلك واكتفى بالقول أنه ينتظر كل يوم أشياء من هذا القبيل.(٧٩)

ولما انتهت مؤامرة اللبن بالفشل على هذا النحو أخذ الجلادون يبحثون عن طريقة أخرى لقتل مدحت باشا. وكانت فكرة القتل بالسم موجودة دائمًا في عقولهم. ووجدوا أن وضع السم هذه المرة في آنية الطعام يكون أنسب. ولكن كان يجب عليهم أن يقوموا بهذا الأمر دون أن يسمعوا شخصًا قط. وسوف يقولون:" لقد مات مدحت باشا مع الأسف بأجله". وتم وضع السم في الآواني واكتشف ذلك وكانت نية السلطان تسميم المحكوم عليهم وقتلهم جميعًا ومن بينهم مدحت باشا. وكانت حادثة الآواني المسمومة قد أثرت كثيرًا على من هم حول مدحت باشا. وأظهر البحث والتحري أن من وضع السم في الآواني ضابطين هما "نوري" و"مميش". ولم يتخلَ طاقم جلادي عبد الحميد الثاني عن فكرة تسميم الباشوات المحكوم عليهم في القلعة رغم كل هذه الإخفاقات. بيد أنهم لم يصلوا لقصدهم بسبب حرص المحكوم عليهم وخدمهم.(٨٠)

(78 ) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 12 _ 15.
(79) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 16 _ 18.
(80) _ Sütle suikast tasarısı böylece fiyaskoyla sonuçlanınca cellatlar başka yollar aramaya koyuldular. Kafalarında hep zehirle öldürme düşüncesi vardı. Zehiri bu kez de yemek kaplarına koymayı uygun buldular. Ama bu işi hiç kimseye duyurmadan yapmak gerekiyordu.''Mithat Paşa maalesef eceliyle öldü'', deyip kurtulacaklardı... Demek ki, padişah'ın niyeti hepsini zehirleyip öldürmekti. İçlerinde en soğukkanlı olan Mithat Paşa'tdı.
Zehirli kaplar olayı Mithat Paşa'nın çevresinde bulunanları çok etkilemişti... Neden sonra yapılan bir araştırma bu zehirleri tencerlere Nuri ve Memiş adlarında iki teğmenin koyduğunu gösterdi...Abdülhamit'in cellat takımı bütün bu başarısızlıklara karşın paşaları zehirleme girişimlerinden vazgeçmediler. Ne var ki, mahkumların ve uşakların çok dikkatli olmaları yüzünden amaçlarına ulaşamadılar.
_ Hıfzı Topuz, A.G.E, s.18 _ 19.

كان والي الحجاز "طوبال عثمان باشا" يرغب في انهاء هذا الأمر بشكل قاطع. وكانت توجد في عقله خطة جنائية جديدة، وكان سيطبقها. فقد أرسل والي الحجاز كتيبتين من الجند ومدفعين إلى قلعة الطائف تحت قيادة "جركس محمد لطفي". وقام هذا الرجل باستدعاء عارف أغا الخادم الشخصي لمدحت باشا إلى غرفته وتحاور معه حول خيانة مدحت باشا للدولة وتعاونه مع الإنجيز وقتل عبد العزيز وتنصيب مراد بك ( أي السلطان مراد) ثم عزله وتنصيب عبد الحميد الثاني، ثم محاولة الإنقلاب عليه ليكون هو أول رئيس للجمهورية. وهدد "جركس محمد لطفي" عارف أغا إن لم يقبل بأمر تسميم مدحت باشا ستكون نهايته القتل والموت. وتظاهر عارف أغا في النهاية بأنه يقبل ذلك وطلب منهم مهلة من الوقت حتى ينهي مدحت باشا كتابة وصيته وخطابه الأخير.(٨١)

وبعدما صدر القرار باعدام مدحت باشا استدعى نقيب وثلاثة ملازمين عارف أغا إلى جوارهم وقالوا له لقد صدر القرار بإعدام الباشا وسننهي الأمر الليلة وعليك أن تسمع الكلام وأن تترك باب حجرة مدحت باشا مفتوحًا ونحن سننهي الأمر دون أي ضوضاء ولكن عارف أغا لم يُطعهم ونبه مدحت باشا بما ينوون القيام به وفي نهاية الأمر قال الجنود لمدحت باشا نحن جنود ونحن خدم الأوامر. واجتمع الجلادون على رأس مدحت باشا وهؤلاء هم: إبراهيم الشركسي وصنديقليلي نوري أغا وقندورجي إسماعيل وبربر إسماعيل وأحمد ومحمد ورجب وعثمان. وانقضّوا فجأة على مدحت باشا وأمسكوا بيديه وقدميه وهو لم يقاوم وسلم نفسه لهم ووضعوا حبلًا في رقبته وشدوا عليه حتى لفظ مدحت باشا أنفاسه الأخيرة.(٨٢)

*** ردة فعل مثقفي الدولة العثمانية والدول الأوروبية على إعدام " مدحت باشا"**

**_ ردة الفعل داخل الدولة العثمانية:**

ذكر السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته نظرة وغرور مدحت باشا بنفسه قائلًا: أعتقد مدحت باشا كثيرًا في أن الأمة تحبه حبًا جمًا، ولم يرَ داعيًا لكتمان: أني لو عزلته فستقوم في البلاد ثورة ضخمة، وأنه من الممكن خلعي أو حتى اعدامي... والذي حدث عندما ابعدته إلى أوروبا: أنه لم يفتح أحد فمه، وهنأني كثيرٌ من الوزراء ورجال الدولة، ونظم الشعراء

(81) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 20 _ 22.
(82) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 243 _ 245.

القصائد في مدحي، وهاجموه أيضًا بالقصائد ونشروها في الصحف والكتب، ومن بين هؤلاء الغازي أحمد مختار باشا.(٨٣)

ويصور مدحت باشا ثقته في نفسه بأن الشعب معه ولا يجرؤ أحد على معاقبته أثناء الحوار الذي دار بينه وبين سكرتيره الخاص " كليكيان واصف أفندي" حيث قال: يفعلون ما يشائون يا واصف. معي الشعب والأمة، لن يستطيعوا فعل شئ ليّ. "انتم تقولون ذلك ولكنهم يحرضون السلطان". " يا واصف لو أن الأمر هكذا، كانوا عزلوني أربعين مرة حتى الآن". " حضرة الباشا في الواقع يقولون أن عزلكم قريب جدًا". على كيفه، يعزلني عندما يريد. ولكن يخلق مشكلة. ورائي شعب ولن استقيل، فلو يسعى السلطان لعزلي، ماذا يحدث، هل تعرف؟، سيأتي الشعب ويأخذني من يدي ويحملني على منصب الصدارة ويجلسني. هل تفهم ذلك؟".(٨٤)

وحينما تبدأ جلسة محاكمة مدحت باشا كان أحمد مدحت أفندي غير راضٍ عن صدور مقالات تدافع عن مدحت باشا في الصحافة الأوروبية. ويدون الآتي: "نشر بعض الأشخاص المنحازين والذين يضمرون الحقد بعض المقالات لمصلحة المتهمين في الصحافة الأوروبية، وأخذت جرائد اسطنبول هذه المقالات ونشرت في الصحافة العثمانية بفضل سلطاننا المحب للحرية". " من أين كان يعرف الأوروبيون أن مدحت باشا وأنصاره كانوا عازمين على النهوض بالدولة العثمانية؟. وما دام أن هؤلاء كانوا عازمين على النهوض بالدولة العثمانية، فلماذا لم يفعلوا شيئاً أثناء اصابة السلطان مراد بالجنون، في حين أن كل الأعنة كانت في أيديهم؟. " " فهؤلاء كانوا رجالًا يسعون ليس لخداعنا فقط بل لخداع الأوروبيين أيضًا". " وبعض من هؤلاء تحت خدمة رجال بعض الدول في أوروبا، ووعدوهم

(٨٣) _ موفق بني المرجه، مرجع سابق، ص ٦٢.

(84) _'' Etsinler bakalım Vasıf, benim arkamda halk var, millet var, bana hiç bir şey yapamazlar.''

'' Öyle diyorsunuz ama Padişah'I kışkırtıyorlar.''

'' Vasıf, öyle olsa beni şimdiye kadar kırk defa azlederdi.''

'' Paşa Hazretleri, zaten azlinizin çok yakın olduğunu söylüyorlar.''

'' Keyfi bilir, dilediği zaman beni azleder. Ama zor eder. Benim arkamda halk var. Ben istifa etmem. Hünkar beni azletmeye kalkarsa ne olur biliyor musun? Halk gelip beni evimden alır ve sadaret'e götürüp oturtur. Anlıyor musun?''.

_ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 106.

بتحقيق أمالهم". " والعثمانيون الملاعين الذين يخدمون هذه الأمال نالوا كرهنا بأمالهم هذه". " والقتلة الذين ارتكبوا جرمًا كهذا ما جزائهم أمام القانون".(٨٥)

وأراد غازي عثمان باشا من أعضاء الديوان، ومحمود نديم باشا، وجودت باشا تطبيق حكم الإعدام الصادر من المحكمة بشكل بات.(٨٦)

*** ردة فعل الدول الأوروبية على إعدام "مدحت باشا"**

كانت لمدحت باشا مكانة سامية عند الأوروبيين، فهم يرونه على أنه رمز للحرية، لكن في باطن الأمر يرونه على أنه هو القادر على هدم كيان الدولة العثمانية وإقامة نظام جديد وفقًا للمؤسسات الأوروبية وبهذا تكون الدولة العثمانية قد انهارت وانتهى دورها. كما أن الدول الأوروبية كانت ترى في مدحت باشا أنه واحد من الرموز العظيمة في أوروبا، وقد ذكر حفظي طوبوز ذلك في روايته موضوع الدراسة قائلًا: كانت الصحف الأجنبية تنشر صورته على مدى سنوات. كان مدحت باشا يظهر كرمز للإصلاح في الدولة العثمانية، وكرمز للتقارب للغرب، والحضارة وحقوق الإنسان. وكانت قد طبعت صحيفة "برس ايليوستره" صورة مدحت باشا في اكتوبر ١٨٧٨م بين بيسمارك وجمبيته وده فريسينت كواحد من القادة الأربعة الكبار في أوروبا. وكان الأوروبيون يكنون لمدحت باشا الإحترام والإعجاب الكبير، ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟، فبينما تصدر محكمة بيلديز حكم الإعدام بحق مدحت

(85) _ Mithat Paşa'nın duruşması başlarken Avrupa gazetelerinde Paşa'yı savunan yazıların çıkmasından Ahmet Mithat Efendi hiç hoşlanmıyor ve şunları yazıyordu:

'' Taraf tutan ve kin besleyen bazı kişiler güya Avrupa basınında suçlular lehine birtakım makaleler yayınlamışlar,İstanbul gazeteleri de bunları almışlar, hürriyetsever Padişahımızın sayesinde Osmanlı basınında bunlar yer bulmuştur.

'' Avrupalılar Mithat Paşa'nın ve yandaşlarının Devlet-I aliyye'yi ve Millet-I Osmaniye'yi kalkındırmaya azimli olduklarını nereden biliyorlar?. Bunlar mademki Devlet-I aliyye ve Millet-I Osmaniye'yi kalkındırmaya azimli imişler, Murat Efendi'nin cinneti sırasında bütün dizginler kendi ellerindeyken neden yapmamışlar?

'' Bunlar yalnız bizi değil, Avrupalıları da aldatmaya çalışan adamlardır.

'' Bunlardan bazıları Avrupa' da bazı devlet adamlarının hizmetindedir, onların emellerini yerine getirmeye söz vermişlerdir.

'' Böyle emellere hizmet edecek olan mel'un Osmanlılar o emelleriyle nefretimizi kazanmışlardır.

'' Böyle önemli bir suç işleyen katillerin adalet önünde cezaları nedir?. _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 203 _ 204.

(86) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 214.

باشا، كانت كل ردود فعل أوروبا تجاه حكم الإعدام شفوية. وصدرت المقالات الصحفية في الجرائد، ولكن ما فائدة ذلك؟. لم تتدخل دولة قط لمنع إرساله إلى الطائف. وكان هذا هو المؤلم. كما كان لا يريد أن يفكر في هؤلاء. وشعر مدحت باشا بهذا الألم في أعماق روحه.(٨٧)

وفي الوقت الذي لم يكن فيه ردة فعل قط في الداخل على هذا الحدث _ وهو إعدام مدحت باشا _ فإن الجرائد في انجلترا تقيم القيامة. وهذا أيضًا يبين صداقة الإنجليز لمدحت باشا. وقد سعى الإنجليز بإحداث كل ألوان الفتن في الدولة العثمانية عن طريق الماسونية.(٨٨)

ولما صدر حكم الإعدام بحق مدحت باشا ظهرت ردات فعل كبيرة في بعض الدول الأوروبية كإنجلترا حيث غطت جريدة " التايمز" هذا الحدث، كما أن حكومة فرنسا تابعت هذا الحدث من خلال التقارير التي كانت ترسلها سفارة فرنسا في اسطنبول. ولكن الدول الأوروبية لم تقم بأي تدخل قط لمنع هذا الظلم وتُرك مدحت باشا لقدره وحيداً.(٨٩)

ولما بلغ نبأ إعدام مدحت باشا العواصم الأوروبية فزعت اوروبا تجاه هذا الحدث. وأبدت الجرائد احتجاجها على هذا الحادث الإجرامي، وطلبوا المعلومات من مراسليهم في اسطنبول. وقلق السلطان أمام هذا الأمر وسيطر الخوف عليه. واستُدعيّ المراسلون الأجانب إلى حجرة المابين وقيل لهم: " لبحث هذه الواقعة وتشريح الجثة إذا لزم الأمر يجب أن تطلب المعلومات من الطائف".(٩٠)

(87) _ Yabancı gazeteler yıllar boyu onun resmini yayınlamışlardı. Mithat Paşa Osmanlı devletinde reformun, Batı'ya yaklaşmanın, uygarlığın, insan haklarının simgesi olarak görünüyordu. La Presse İllustree gazetesi 1878 Ekimi'nde onun resmini Avrupa'nın dört büyük liderinden biri olarak, Bismarck, Gambetta ve De Freycinet'nın arasında basmıştı. Avrupalıların kendisine büyük saygısı ve hayranlığı vardı, ama ne olmuştu sonra?. Yıldız Mahkemesi idam kararını verirken Avrupa'nın bütün tepkisi sözde kalmıştı. Gazetelerde sütun sütun yazılar çıkmıştı, ama neye yarar?. Hiç bir devlet onun Taif'e gönderilmesini önlemek için en ufak bir girişimde bulunmamıştı. Acı olan da buydu. Bunları düşünmek istemiyordu. Mithat Paşa ruhunun derinliğinde bu acıyı duydu.
_ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 11.
(88) _ Prof.Dr. İsmail Çetişli ve diğerleri, A.G.E,s 17.
(89) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 116 _ 218.
(90) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 2٥3.

أما عن دور السلطان عبد الحميد الثاني في قتل مدحت باشا فإن السلطان يدافع عن نفسه في تهمة القتل هذه حيث " يرد عبد الحميد في مذكراته على اتهامه بقتل مدحت باشا فيقول: بعد وفاته بعشر سنوات تقريبًا، نشرت في أوروبا رسالة باللغة التركية وردت فيها مجموعة من التفصيلات والأسماء المشتركة في قتله، وإذا كان ما ورد في هذه الرسالة صحيحًا فيتضح منها أن ليس بين المشتركين في الحادثة من ينتمون إليّ، وأن ليس ليّ علاقة بها".(٩١)

وبعد إعلان المشروطية الثانية عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م أرسل إلى ولاية الحجاز أمر للعثور على قبر "مدحت باشا". وكان يُراد نقل القبر إلى مكان مهيب. ووجدوا القبر وفتحوه ولم تكن الجمجمة موجودة في القبر. وبعد ذلك مضت الأعوام، وأخذت رفات مدحت باشا من الطائف وحملت إلى اسطنبول وسط مراسم كبيرة ودفنت في مقابر الشهداء في " حريت تبه سى" (تبة الحرية). وكان يوجد في التابوت المرسل من الطائف عظام القدمين والذراعين والأكتاف وسلسلة الظهر والقفص الصدري. ولكن كانت لا توجد الجمجمة في هذه الرفات؛ لأن السلطان كان قد محى هذه الجمجمة. ولكن لم يستطع أن يمحو الحرية والمساواة والعدل والفكر الديمقراطي الذي كمُن في جمجمته، وكانت هذه الأشياء بضاعة فترة شبابه. وهذه المبادئ الديمقراطية البرلمانية – التي كان مدحت باشا أول من يعلن عنها في تركيا – تأخذ مكانها في أساس النظام الجمهوري الذي أقيم عام١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م.(٩٢)

(٩١)_موفق بني المرجه، مرجع سابق، ص ٦٤.

(92) _ Hıfzı Topuz, A.G.E, s. 2٥4 _ 255.

## الخاتمة

إن أي بحث علمي يتعرض لقضية معينة إنما يستهدف نتائج معينة من وراء هذه الدراسة؛ فلا وجود لبحث بدون نتائج. ومن خلال هذه الدراسة توصل البحث إلى مجموعة من النتائج البحثية يمكن ذكرها على النحو التالي:

إن الدولة العثمانية التي كانت تقع تحت مؤثرات داخلية وخارجية كان لا يمكنها البقاء في وضع ثبات ولا يطرأ عليها تغير قط؛ لكن تدافع الأحداث من سقوط الدولة في الهزائم والضعف والبحث عن حلول لهذا الأمر بالتوجه نحو الغرب والاحتكاك بالحياة الغربية المادية والحضارية أدى إلى ميل الدولة نحو الغرب على المستوى البيروقراطي الحاكم أو على مستوى الطبقة المثقفة التي احتكت بالحياة الغربية ووقفت على ما وصلت إليه من تطور.

توصلت الدراسة إلى أن الخلاف بين قوى الإصلاح أو المعارضين لرتم الحياة بصفة عامة والسلطة الحاكمة المتمثلة في السلطان كان لا بد وأن تكون مبنية على قواسم وفكر مشترك نابع من حاجات المجتمع ومصلحته. وكان لا بد من تغليب مصلحة المجتمع والبحث عما يفيده فقط. وليس كل ما يصلح لمجتمع يصلح لمجتمع آخر، فكان على الطبقة المثقفة المتصدرة لمشهد الإصلاح أن تناقش فيما بينها والمعنيين بالحكم الفكر الإصلاحي الذي يريدون تطبيقه داخل المجتمع وينتقون منه أفضله.

ومن النتائج التي أفضت إليها الدراسة هو أن هذا الإتجاه الإصلاحي للواقع العثماني بسبب اكتسائه بالرداء السياسي فإنه تحول إلى صراع وأدى إلى نتائج غير محمودة – رغم ظهور بعض ملامح الحياة الغربية وبعض مؤسسات على النمط الغربي – مثل عزل السلطان عبد الحميد الثاني من ناحية، وسقوط طبقة الإصلاحيين في فخ الغرب ومخططه المسموم ودخولهم الحرب العالمية الأولى وانتهاء أمر الدولة العثمانية؛ وكل ذلك بسبب أن من يبغي حركة الإصلاح وتغيير ملامح المجتمع ومن يحكمون استعْدَوا بعضهم بعض ولم يخططوا لنهضة دولتهم وفق رؤى مشتركة ومخطط يضعونه على مراحل.

توصلت الدراسة إلى أن الفكر أو الأيديولوجيا لا يمكن هزيمتها إلا فكريًا. فما كان يؤمن به "مدحت باشا" ورفاقه من فكر إصلاحي لم ينتهي ولم يمت بقطع رأس "مدحت باشا" وإنما

ظلت هذه الإفكار حية بين أنصاره ومثلت ركنًا ركينًا في الجمهورية التركية الحديثة بعد إعلان الجمهورية التركية عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م.

ومن النتائج التي حققتها الدراسة أن الغرب دائمًا يسعى لتحقيق مخططه وأهدافه من داخل النظريات الفكرية والرؤى التي يتبناها أتباعه من أبناء الدولة العثمانية؛ لأن الغرب كان يعلم تمام العلم أن تحقيق هذا الفكر المسمى بالإصلاحي ويدعمون فيه أنصاره إنما هو الطريق إلى هدم الدولة العثمانية وتغيير معالمها تمامًا ومن ثم زوالها.

ما توصلت إليه الدراسة من نتائج أيضًا أن التغيير والإصلاح داخل المجتمعات حينما يأتي من الطبقة الحاكمة التي تتمتع بالخبرة والتجربة السياسية أفضل ممن يشاهدون التطور بالعين ويريدون نقل هذا التطور من مجتمع آخر لمجتمعهم دون وعي ودراسة. وهذا ما حدث مع مدحت باشا الذي أراد نقل مظاهر الحياة الغربية ومؤسساتها وهو ليس بالسياسي الخبير أو المجرب على حد تعبير النقاد والكتاب الأتراك أنفسهم.

المصادر والمراجع

* المصادر والمراجع العربية

١_ موفق بني المرجه، صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية، مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر،الكويت، مايو ١٩٨٤م.

* المصادر التركية

1_ Hıfzı Topuz, gazi ve fikriye, 27.Basım, Remzi Kitabevi, İstanbul 2019.
2_ Hıfzı Topuz, Taif'te ölüm, 9.Basım, Remzi Kitabevi, İstanbul 1999.

* المراجع التركية

1_ Ahmet Hamdi Tanpınar( prof dr), 19.uncu Asır Türk Edebiyatı Tarihi, 9.baskı, İstanbul 2001.
2_ Hasan SarıKaya, Hıfzı Topuz'un Romanlarında yapı, tema ve anlatım, yüksek lisans tezi, Mersin üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü, Türk dili ve Edebiyatı Ana Bilim dalı, ocak 2016.
3_ İsmail Çetişli (prof.dr) ve diğerleri, II.meşrutiyet Dönemi Türk Edebiyatı, I.baskı, Akçağ yayınları, Ankara 2007.
4_ Mehmet Beşirli, Osmanlı'da modernleşme ve Aydınlar, 1789 – 1908, Dini araştırmalar,c.2, Eylül – Aralık 1999.
5_ Mehmet Zeki Pakalın, Osmanlı Tarihi Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, 2.cilt, Milli Eğitim Basımevi, İstanbul 1993.
6_ Saadettin Yıldız, Tanzimat Dönemi Edebiyatı, Günce yayıncılığı, EskiŞehir 2003.
7_ Seyit Kemal KaraAli Oğlu,edebiyatımızda şair ve yazarlar, 9.basım, İnkılap Kitabevi, İstanbul 1986.
8_ Tercüman gazetesi, Osmanlı Tarihi Ansiklopedisi, İstanbul 1985.

* مواقع النت

1_ https: www.dr.tr/hifzi topuz/s= 262345
2_ https: www.remzi.com.tr/yazar/hifzi- topuz
3_ https: www.idefix.com/yazar/hifzi- topuz/s=262345